الأندلس والناصر

علي راضي

الكتاب: الأندلس والناصر

الكاتب: علي راضي

الطبعة: ٢٠٢٣

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com **E-mail:** info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

راضي ، علي

الأندلس والناصر / علي راضي

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٨٩ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٥ – ٦٠٩ – ٩٩١ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٢٠٢٢٤ / ٢٠٢٢

الأندلس والناصر

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

الإهداء

إلى شمس الحضارة العربية التي غابت في ربوع الأندلس منذ أكثر من خمسة قرون..

إلى هذه الشمس التي أشرقت علي بلاد أوربا فأنارت للعالم طريق المعرفة والنور..

إلى كل عربي مؤمن بعروبته عامل على إحياء سالف أمجاده وخالد تراث أجداده..

أهدي هذه الصفحات الناصعة البياض في تاريخ الحضارة الإنسانية ومدنيتها.

المؤلف

الأندلس والناصر

العرب في إفريقيا

في عام ٦٤١ م، في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، فتح عمرو بن العاص مصر، فكانت أول ما فتحه العرب من بلاد إفريقيا، ومن مصر واصل العرب فتوحاتهم لشمال إفريقيا ففتحوا ليبيا وتونس، وكانت هذه البلاد جميعها خاضعة للدولة الرومانية.

وفي عام ٦٧٠ بنى عقبة بن نافع مدينة القيروان التي جعلها قاعدة جيوشه التي غزت بلاد المغرب، ولم يأت عام ٦٩٨ حتى سيطر العرب على شمال إفريقيا سيطرة كاملة، ووصل العرب إلى شاطئ المحيط.

ولم يكن الاستيلاء علي هذا الجزء من إفريقيا بالأمر الهين السهل، فقد استمات الرومان في الدفاع عنه واستخدموا في هذا السبيل أهالي البلاد من البربر وساعدتهم طبيعة هذه البلاد الجبلية، وقد فتك البربر بجيش عقبة وقتلوه، كما فتكوا بجيش زهير نائبه، وكان ضحية من ضحاياهم.. وقد أغرت هذه الانتصارات الرومان الذين جاءوا من صقلية وانضموا لقبائل البربر التي زحفت نحو القيروان واستطاعت أن تستولي عليها.

وخشي عبد الملك بن مروان العاقبة؛ فأمر عامله حسان بن نعمان باسترجاع القيروان مهما كلفه هذا من تضحية، وصدع حسان بالأمر

واسترد القيروان فعلا، ولكن البربر بقيادة الكاهنة، عادوا ففتكوا بجيش حسان الذي اضطر إلى التراجع إلى (برقة).

وكاد نفوذ البربر يعم هذه البلاد لولا الجهد الناجح الذي بذله حسان إذ أعد جيشا قويا قاده بنفسه وهاجم به معقل الكاهنة، وهزم جيشها شر هزيمة، وكانت حملته هذه موفقة وحاسمة، ودخل بعدها عدد كبير من البربر في الإسلام، وانتهت مقاومتهم ثم بدأوا يمتزجون بالعرب، وفي عام ٧٠٨ استطاع موسى بن نصير فتح مراكش ودانت للمسلمين العرب كل بلاد إفريقيا الشمالية، وانتشر الدين الإسلامي في كل ربوعها.

وبانتشار الإسلام في هذه البلاد بدأ عهد جديد، ونعمت هذه المنطقة بحكم عادل وتسامح كبير ومساواة لم تكن معروفة فيها من قبل، وبدأ العرب يمتزجون بالسكان الأصليين، وقامت بين البربر والعرب روابط الدم والدين ثم اللغة، وتوحدت الثقافة وعمَّ الرخاء، ولكن ما جبل عليه البربر من ميل للاستقلال وحب للحرب والمغامرة جعلهم يثورون علي الحكام أكثر من مرة، ويعلنون استقلالهم عن الخلافة العباسية، كما حدث في عهد الخليفة موسى الهادي، والرشيد. فقد فر من المدينة أحد أحفاد الحسين بن علي المدعو (إدريس)، وكان الخليفة الهادي قد أخمد ثورة المدينة بشدة وتفرق من بقي من سلالة علي؛ فركن إدريس إلى بلاد المغرب واستغل نسبه بالرسول عليه السلام؛ فأثار العطف عليه والتفت حوله قبائل البربر وآزروه؛ فكان المؤسس لدولة الأدارسة، واضطر الرشيد – مع بالغ قوته وعظمة ملكه – أن يترك الحكم في هذه البلاد لإبراهيم بن

الأغلب الذي استقل بالحكم فيها، والذي جعل حكمه وراثيا في أبنائه من بعده لقاء جزية يقدمها للخليفة في بغداد، وكانت في عهد الرشيد أربعين ألف دينار.

وفي هذه المنطقة قامت وراجت دعوة الفاطميين الذين أقنعوا الأهالي بأنهم من نسل السيدة فاطمة الزهراء، وقد عاشت دولة الفاطميين في المغرب وفي القاهرة أكثر من مائتي عام (٩٦٩ – ١١٧٢ م) .

* * *

العرب في أوربا

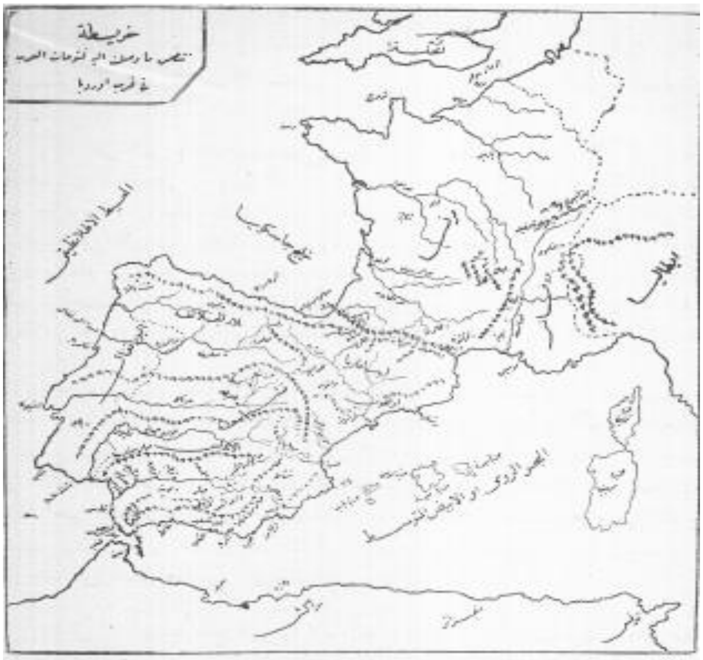
بعد هزيمة الروم أمام جيش المسلمين في معركة اليرموك عام ٦٤٣ م استولى العرب على فلسطين وبلاد الشام، وحاول الروم أكثر من مرة استرداد ما فقدوه من أملاكهم، ولكنهم باءوا بالفشل في كل محاولاتهم، واستطاع معاوية بن أبي سفيان أن يصل بجيوشه إلى ساحل البحر الأسود، كما وصلت جيوش المهدي العباسي إلى شواطئ البوسفور، ولكن أحدا من خلفاء العرب لم يوفق في فتح القسطنطينية عاصمة الدولة الرومانية الشرقية والتي بناها عام ٣٣٠ م الإمبراطور قسطنطين، والتي استعصى فتحها على العرب برغم قوة جيوشهم، وانهزام الرومان أمام هذه الجيوش العربية أكثر من مرة.

وألزم هارون الرشيد (إيريني) – أم قسطنطين السادس – بدفع الجزية، ولم يفكر في غزو القسطنطينية، بل اكتفى بما فتحه من بلاد آسيا الصغرى، وجعل على حدود بين أملاك المسلمين وأملاك الرومان مجموعة

من المدن الحصينة أمدها بالرجال والعتاد، وأطلق عليها اسم "العواصم" أي التي تعصم أملاكه من غزو العدو، وكانت طرسوس وأنطاكية من أهم هذه العواصم، وفي عهد ابنه المأمون استولى العرب علي جزيرة صقلية، ومنذ ذلك التاريخ أصبحت صقلية مركز إشعاع عربي وموطنًا من مواطن الحضارة الإسلامية التي تأثرت بها أوربا..

وقد ظلت حضارة الإسلام مزدهرة في صقلية نحو قرنين من الزمان حتى أجلى العرب عن هذه الجزيرة القائد النورمندي (روبرت جسكارد) الذي استولى عليها عام ١٠٦٠ م، وقد أقام لنفسه في جنوب إيطاليا مملكة مستقلة كان من حكامها (روجر الثاني) الذي أفاد من مدينة العرب ونقلها عنهم..

وقد نبغ في صقلية عدد كبير من أعلام الأدب والتاريخ والفقهاء والرياضيين وعلماء الطب والفلك، وقد رثاها في شعره الشاعر الصقلي المعروف بابن حمديس الذي هجرها مرغما بعد الفتح النورمندي، ووصل إلى الأندلس عام ٤٧١ هـ ١٠٧٨م



(خريطة تتضمن ما وصلت اليه فتوحات العرب فى غرب اوربا)

إذ يقول:

ذكـــرت صـــقلية، والهـــوى   يجـــدد في الـــنفس تـــذكارها
فإن كنت قد أخرجت من جنة   فـــإني أحـــدث أخبارهـــا
ولـــولا ملوحـــة مـــاء البكـــاء   حســـبت دمـــوعي أنهارهـــا

ويقول من قصيدة أخرى:

ولـــو أن أرضـــي حـــرة لأتيتهـــا   بعـــزم يعـــد الســـير ضـــربة لازب
ولكـــن أرضـــي كيـــف لي بفكاكهـــا   من الأسر في أيدي العلوج الكواذب

وإذا كان العرب قد استعصى عليهم دخول أوربا من بابها الشرقي، فقد شاء الله أن يدخلوها من بابها الغربي؛ فعبروا إليها من إفريقيا، وخضعت لهم شبه جزيرة آيبريا، ولم يكتفوا بما فتحوه في إسبانيا، بل عبروا

جبال البرانس واستولوا من الأراضي الفرنسية على أكثر من مقاطعة، ولولا هزيمتهم في موقعة (تور) أمام جيش (شارل مارتل) لغيروا وجه التاريخ في غرب أوربا كلها. ورغم تراجعهم إلى إسبانيا واكتفائهم بحكمها، فقد طال مقامهم في ربوع هذه البقعة من أوربا فظلوا بها قرابة الثمانية قرون من عام (٧١١ إلى عام ١٤٩٢ م)

وخلال مقامهم الطويل في إسبانيا ازدهرت حضارة الأندلس وأزهر روضها، وكانت كعبة العلم ونموذج الأدب ومضرب المثل في التقدم المادي في جميع ميادينه. ومن مدن الأندلس العامرة مثل: قرطبة وغرناطة وأشبيلية، نهل طلاب العلم موردهم، وعن علماء العرب بدأ أعلام النهضة الأوربية الأول حركة إحياء العلوم في أوربا، وقد أقر هذه الحقيقة معظم مؤرخي الغرب أنفسهم ولم ينكروا فضل الحضارة العربية علي نهضتهم وأثرها المباشر في خروجهم من ظلمة العصور الوسطى إلى نور العصر الحديث.

وقبل أن نصف فتح العرب لإسبانيا يجمل بنا أن نصف في إيجاز، معالم هذه البلاد المطل جزء منها على البحر الأبيض المتوسط، والجزء الآخر على المحيط الأطلسي، وتفصلها عن إسبانيا جبال البرانس، ولا يفصلها عن إفريقيا سوى المضيق الضيق الذي أصبح يُعرف من بعد الفتح العربي باسم فاتح الأندلس (طارق بن زياد)، وشبه الجزيرة هذه هضبة تشبه المثلث قاعدته موازية لساحل المحيط وحافته الشمالية تطل على نهر (إيرو) وحافته الجنوبية تطل على سهل الأندلس الخصيب، والذي يرويه نهر

(الوادي الكبير)، وهذا الوادي في الواقع سهل فيضي تجود فيه الزراعة وتتعدد المحاصيل.

وعند الفتح العربي كان يسكن شبه الجزيرة هذه قبائل القوط الغربيين، ولم تكن إسبانيا موطنهم الأصلي فقد عاشوا في شرق أوربا خارج حدود الدولة الرومانية، فلما غزا أرضهم (الهون) طلبوا من الإمبراطور (فالنز) أن يعبروا الحدود؛ فأذن لهم بالإقامة في شمال البلقان، ودب الضعف في جسم الدولة الرومانية وظهر زعيم قوي من زعماء القوط أغراه هذا الضعف الملموس فسار على رأس جيش كبير وزحف إلى روما واستولى عليها في عام ٤٠٨ م، ولكن هذه القبائل لم يطل بها المقام في إيطاليا فتحولت إلى بلاد (غالة – فرنسا)، ومنها دخلوا إسبانيا وأقاموا بها.

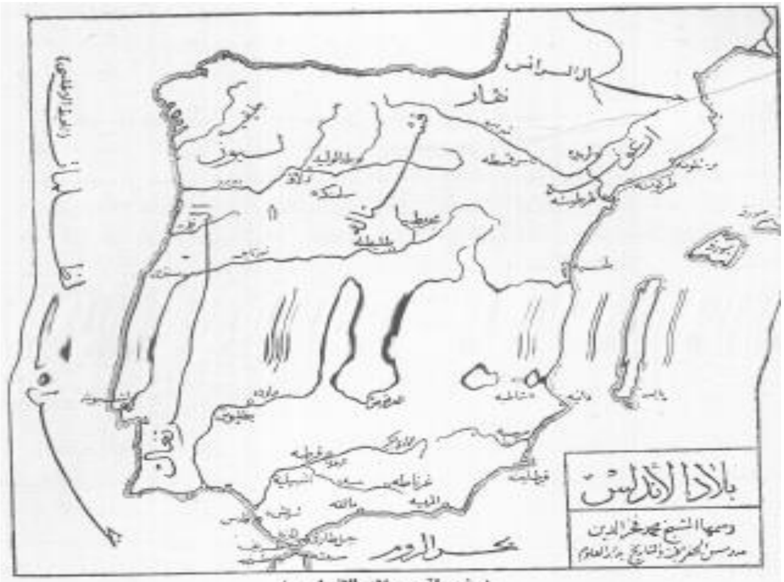
وساد إسبانيا – كما ساد أوربا كلها – حكم الإقطاع واستمر قائما من القرن التاسع حتى القرن الثالث عشر، وهذه هي الفترة المعروفة في تاريخ أوربا بالعصور الوسطى، وهي عصور مظلمة عمت فيها أوربا الفوضى السياسية والتفكك الاجتماعي والاقتصادي، وكان المجتمع الأوربي منقسما إلى طبقات: قلة من الأشراف تتمتع بالجاه والرخاء والسلطان، وغالبية من العبيد تكدح لصالح الأشراف وتباع مع الأرض من سيد إلى سيد، وتعاني أشد أنواع الجهل والفاقة.

هذه كانت الحال في إسبانيا عندما فتح العرب شمال إفريقيا، وكانت بعض الطوائف التي تعيش في هذه البلاد – وبخاصة (اليهود) – تعاني أشد أنواع الاضطهاد الديني والسياسي، وترامى إلى مسامع هؤلاء المضطهدين

ما نشره العرب في بلاد المغرب من عدل وتسامح، فبدأوا يهجرون إسبانيا زرافات ووحدانا، وفي ظل الحكم الإسلامي عاشوا كأناس لهم حق الحياة الكريمة، وكانت هذه المعاملة الطيبة لغير المسلمين في كل بلد فتحها العرب من أهم العوامل التي حببت إلى الناس الدخول في دين الإسلام والحرص على اعتناقه.

وشكا هؤلاء المهاجرون إلى عامل الأمويين في شمال إفريقيا (موسى ين نصير) ما يلقاه إخوانهم من عذاب واضطهاد في إسبانيا، وما تعانيه هذه البلاد من فوضى وشقاق، وأن الشعب منقسم على نفسه، والأمراء منقسمون على أنفسهم، وأن (لزريق) حاكم إسبانيا مكروه من شعبه ومغتصب للملك.

وطافت فكرة فتح هذه البلاد برأس ابن نصير، وأرسل إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك يستأذنه في ذلك فأذن له، وبدأ الحاكم العربي يستطلع عن كثب أحوال هذه البلاد قبل أن يعقد العزم على فتحها.



(خريطة ـ بلاد الاندلس)

فتح الأندلس

بدأ يجس النبض فأدرك ما بهذه الدولة من ضعف وتخاذل، واتصل به أبناء الملك المخلوع عن عرشه مستنجدين، وأدرك أن للملك الغاصب أعداء في الداخل والخارج وأن من ألد أعدائه الكونت (جوليان) حاكم مدينة (سبته) وأعد القائد العربي لكل شيء عدته وكانت خطوته الأولى الموفقة هي استيلاؤه على جزر البليار المتاخمة للساحل الشرقي لإسبانيا، وقد جعلها قواعد عسكرية لتجمعاته ومراكز تموينية لجيشه، ثم كلف (طريف بن مالك) بالتأكد من الأخبار التي وصلته عن حال البلاد الداخلية فأرسل عيونه تستطلع وتستخبر، ثم دعا مولاه (طارق بن زياد) وجعله علي رأس جيش لا يزيد علي سبعة آلاف مقاتل.

وعبر طارق بن زياد البحر إلى إسبانيا على مراكب أعدها لهذا الغرض، ويقول بعض المؤرخين أنه أحرقها فور عبوره البحر ليعلم جنده بأنه لا مفر من القتال ولا بد من النصر، وطير الخبر إلى (لزريق) فأجمع أمره وأعد جيشه وتقدمه واثقا من قوة عدده وعدده. ووقف طارق يحض جيشه على القتال والاستشهاد في سبيل الله، وكان خطابه التاريخي من أروع ما خاطب قائد به، خطاب مؤمن مخلص لربه ودينه مضح في سبيل إعلاء كلمة الله ونشر دينه، وكانت خطبته التاريخية قطعة من روائع الأدب، فقد كان طارق يقول لجيشه: (أيها الناس.. أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم، وليس لكم والله الا الصدق والصبر، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته وأقواته موفورة، ولا وزر لكم إلا سيوفكم ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم.. وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرا ذهب ريحكم وتقوضت قواكم، ولتحول عدوكم من رعبه منكم إلى الجرأة عليكم؛ فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة، إن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت) (بتصرف)

هذا بعض مما أشعل به طارق حماسة جنده فصدقوا في حملتهم وصدق في وعده لهم أن يتقدمهم، وأن يخص بحملته طاغية القوم، وكبروا وارتاع لزريق من شدة بأسهم وقوة جلدهم، وما كان موسى ليترك قائده دون مدد، فلما اشتد أزره ووصله المدد أحاط بجيش عدوه وهزمه شر

هزيمة في موقعة (شريش)، وغرق لزريق وتبدد شمل جيشه، وكتب الله لجند طارق النصر وسقطت في أيديهم (قرطبة) وكان فتحها علي أيدي المسلمين إيذانا بمولد عصر جديد في تاريخ هذه البلاد، وبدأت مدن إسبانيا المحصنة تستسلم للغزاة الفاتحين واحدة بعد الأخرى ففتحت لهم أبواب (غرناطة) ثم دانت لهم طليطلة العاصمة، وتم الفتح في عام ٧١١ م .

ولحق موسى بن نصير بمولاه طارق بن زياد، وتعاونا على فتح باقي مدن إسبانيا، وسار من نصر إلى نصر حتي وصلا جبال البرانس، وكادا يتخطياها إلى أراضي فرنسا، وكانت الفرصة أمامهما مواتية والظروف مساعدة، فقد كان الخلاف بين عنصري الفرنجة والألمان علي أشده ولكنهما فوجئا بدعوة أمير المؤمنين لهما واستدعائهما لدار الخلافة في دمشق، فلم يجدا بدا من الخضوع لأمر الخليفة والصدع به ووصلا دمشق ولكن كان الخليفة الوليد بن عبد الملك كان قد اختاره الله إلى جواره قبل وصولهما وخلفه في الحكم أخوه (مسلمة بن عبد الملك) الذي أساء استقبالهما وأهمل شأنهما حتى ماتا فقيرين بعد أن فتحا لملك بني أمية أخصب بقعة في أوربا وبعد أن وطدا للعرب أقدامهم في بلاد أسسوا فيها حضارة السلام ثمانية قرون كاملة وأشرقت فيها خلافة بني أمية بعد أن قضي عليها القضاء المبرم في دمشق على يد العباسيين.

العرب في الأندلس

تاريخ العرب في الأندلس تاريخ طويل، فقد حكموا هذه البقعة من أوربا نحو الثمانية قرون، وأقاموا فيها حضارة لم تعرفها القارة من قبل

ومدنية نقلها الأوربيون إلى بلادهم، ولم بنكر الكثيرون من مؤرخيهم فضل العرب عليهم، وألفَّت مجلدات لا تحصى في تاريخ الأندلس تحت الحكم العربي.. ويطول بنا القول لو تتبعنا هذا التاريخ من الفتح إلى العصر الذي نؤرخ له، وهو بداية عصر الخلافة في الأندلس، ولكن هذا لن يمنعنا من تسجيل تطورات المجتمع العربي الإسلامي حتى عصر الناصر ليرى القارئ الظروف التي أدت بالناصر إلى إعلان الخلافة مع وجود الخليفة العباسي في بغداد.

عاش المجتمع الإسلامي في الأندلس فترة طويلة جدا انتابته خلالها عوامل الضعف والقوة والمد والجذر والتقدم والتأخر والانقسام والوحدة، وهذه سنة الله في خلقه.. ولكن الظاهرة التي امتاز بها هذا المجتمع، وقلّ أن يشاركه فيها آخر هي استمرار التقدم الحضاري حتى في أظلم عصور السياسية وأقساها محنة، فلم يتوقف تيار الحضارة في عهد من العهود ولم ترجع المدينة في هذه البلاد القهقرى حتى أخرج العرب من ديارهم ودالت إلى الأبد دولتهم.

* * *

عصر ما قبل الخلافة

(من ٧١١ إلى ٩١٧)

وليس في نيتنا أن نؤرخ لهذه الحقبة من الزمن حتى نصل إلى عصر عبد الرحمن الناصر الذي تولى الحكم في عام ٩١٢ وليست هذه مهمتنا في هذا البحث، ولكننا نستعرض في إيجاز العهود السابقة على عهد

الناصر ومدى التطور الذي حدث في هذه البلاد قبل أن يحكمها، ذاكرين الشخصيات ذات الأثر الكبير في التقدم الفكري والمادي في الأندلس.

والحقيقة التي لا ينكرها أحد هي أن كل شيء في إسبانيا قد تغير تغيرا كليا بعد الفتح العربي، وأن الاستقرار قد حل محل الفوضى، والحكومة المركزية القوية قد حلت محل النظام الإقطاعي، وأن ازدهارا ملموسا قد صاحب الزراعة والصناعة والتجارة، وأن الفكر الإسلامي قد طبع أهالي هذه البلاد بطابعه الخاص، وأن علوم الشرق وآدابه التي وصلت إلى القمة في العهد العباسي الأول قد نقلت إلى الغرب وانتشرت فيه، وأن أدبا جديدا أيضا أورق وأثمر في رياض هذه البلاد.

وكان أول من ولي الأمر في الأندلس بعد أن بارحها إلى دمشق (موسى بن نصير) ابنه عبد العزيز الذي أبلى بلاءا حسنا في إرساء قواعد الحكم على أسس سليمة، فقضى على نظام الإقطاع وجميع السلطة في يده، وبذلك حرر رقيق الأرض وفك إسار الطبقة التي كان يستعبدها الأشراف وكانوا لا يعترفون لها حتى بحق الحياة، والإسلام لا يقر العبودية ولا يفرق بين المولى والسيد ما داما مسلمين، ولا بين من يملك ومن لا يملك ما دام الكل يؤمن بالله وكتبه ورسله، ولهذا تمتع بالحرية الكاملة كل من اعتنق الإسلام، ولم تبق لأحد عليه سيطرة من أي نوع. أما من بقي علي دينه من الأحرار: مسيحيين كانوا أم يهودا فقد أمنهم المسلمون علي أرواحهم وأملاكهم ومنحوهم حرية العقيدة وإقامة الشعائر الدينية فذاقوا حلاوة التسامح الإسلامي لأول مرة في حياتهم، وقد كانوا من قبل يسامون

الخسف والظلم الاجتماعي ويصادرون في حرياتهم ومعتقداتهم وأموالهم؛ ولهذا دخل الإسلام عدد كبير من الأهالي وهجروا لغتهم الأصلية وتعلموا اللغة العربية وأصبح يطلق عليهم اسم المستعربين، ونبغ منهم أدباء وعلماء، ومنهم من وصل إلى أعلى مناصب الدولة.

وأخذ عبد العزيز بن موسى بن نصير بمبدأ الشورى الإسلامي وطبقه فعلا، فألف مجلسا من كبار العلماء والقواد يستشيره في تصريف أمور الدولة ويحمل معه أعباء الحكم، وقد حاول التوفيق بين قبائل العرب المختلفة التي كان يتكون منها الجيش الفاتح وهي: (الحميرية، والشامية، والعراقية)، ونجح في مهمته هذه لدرجة كبيرة فجمع الجيش حوله، وكان من شأن هذه الوحدة في الجيش أن خشي أعداء العرب بأس جيوشهم فلم يحاولوا أن يستردوا شيئا مما فتحه العرب.

وحبب عبد العزيز لأفراد الجيش الاختلاط بالأهالي والزواج منهم، وبدأ بنفسه فتزوج من أرملة لزريق، وحث على مصاهرة عليه القوم من الأهالي فاستجابوا له. وفي اتباع هذه السياسة حكمة لا تخفى على أحد، وقد كانت هذه سياسة العرب الفاتحين يحببون إلى القائل العربية الهجرة إلى البلاد التي تخضع لهم بحق الفتح ليستقروا بها وليكونوا بامتزاجهم مع أهالي هذه البلاد جيلا جديدا يجري في عروقه الدم العربي، وهذا ما فعله أول حاكم في الأندلس.

وساد الاستقرار ربوع هذه البلاد وانتشر العدل، وبدأ الأهالي من العرب وغير العرب يستغلون خصوبة الأرض في الزراعة وقربها من شمال

إفريقيا في التجارة وبدأ الفكر الإسلامي يتطور، وأعاد عبد العزيز تنظيم جيشه وقواده، فلم يجرؤ أحد من أمراء الإفرنج الحاكمين على الولايات المتاخمة لحدود مملكته أن يغير عليها أو يفكر في غزوها.

وعندما ولي الخلافة (عمر بن عبد العزيز) عيّن (السمح بن مالك) واليا على الأندلس، وقد تولى الحكم وجيش المسلمين قوي متحد والأمن في ربوع البلاد موفور والأرزاق كثيرة والعيش ميسور، فلم يتردد السمح بن مالك في قيادة جيشه والسير به عبر جبال البرانس محتلا مدينة (آربونه) على الساحل الشرقي لإسبانيا، كما استولى على مقاطعة (آكتين)، ولكن الفرنجة هالهم هذا التقدم فجمعوا شملهم ونظموا صفوفهم وقابلوا العرب عند (طولوشه) ودارت بين الفرنجة والعرب معركة من معارك التاريخ المشهورة؛ فدارت الدائرة على الجيش العربي الذي ارتد بعد أن قتل قائده، وتعرف هذه الموقعة عند العرب بـ "بلاط الشهداء"؛ لكثرة من استشهد فيها من الجيش العربي، واكتفى العرب باحتفاظهم بـ "آربونه" وجعلها قاعدة بحرية عسكرية لهم.

ولم يكن من دأب العرب الفاتحين الاستسلام أو الاعتراف بالهزيمة، وعزّ عليهم ما حل بهم في (طولوشه) فصمموا على مناجزة عدوهم، وأعد اميرهم عبد الرحمن الغافقي عدته لغزو جديد، وقد نجح في الوصول إلى فرنسا ودخول إقليم (برغنديا)، وسقطت في يده مدينة (ليون) واتجه نحو مدينة (بوردو) الواقعة على نهر اللوار، ومعنى ذلك أنه توغل في قلب فرنسا، ثم التقى بجيش (شارل مارتل)، ودارت المعركة التاريخية الكبرى،

وهي معركة (تور) وظلت المعركة حامية الوطيس أربعة أيام كاملة، ثم انتهت بهزيمة العرب وقتل قائدهم وإجلائهم عن فرنسا وتراجعهم إلى إسبانيا، ولو قدر للعرب أن ينتصروا في هذه المعركة لتغير وجه التاريخ في غرب أوربا.

ولم تكن هزيمة العرب في هذه الموقعة الحاسمة مجرد سوء حظ لازمهم، ولكن أخطاء كثيرة ارتكبوها عن غير وعي أدت إلى هزيمتهم، فقد تركوا في كل بلد فتحوه حامية كبيرة لتحمي ظهورهم، فلما حانت الساعة الفاصلة كان جيشهم أقل عددا في حين أن جيش عدوهم كان أكثر عددا وعتادا، وبدت الفرقة تدب بين العرب والبربر في الوقت الذي تحالف عليهم مع الفرنجة جماعة الألمان، وكانوا قبل ذلك من ألد خصومهم، ولعل من أبرز أخطائهم إهمالهم في المغانم بعيدة المدي فظل العرب في إسبانيا ولم يفكروا في غزو أوربا مرة أخرى، وبدأت الدويلات الأجنبية المحيطة بإسبانيا من الشمال تنشط وتتحفز وتفاوض اللمبارديين في إيطاليا والفرنجة في فرنسا في تكوين اتحاد لعمل مشترك – هو طرد العرب من إسبانيا نفسها – وظل هذا الحلم يداعبهم ولكن لم يتحقق لهم إلا بعد عدة قرون.

* * *

تعبيد الطريق

بعد موقعة (تور) بثمانية وعشرين عاما سقطت دولة بني أمية في دمشق وقتل آخر خلفائهم مروان بن محمد في صعيد مصر، وبانتقال الخلافة إلى بني العباس أعملوا السيف في الأمويين حتى أفنوهم عن آخرهم، ولم ينج منهم إلا عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك

بن مروان الذي فر إلى مصر، ومنها إلى (برقة) ثم إلى بلاد المغرب، وخاطب جماعة من أنصار الأمويين في إسبانيا فلبوا له دعوته وعاهده جماعة منهم على نصرته، فلما استوثق من عهدهم عبر البحر إلى إسبانيا فبر الأنصار له بوعدهم والتفوا حوله. وقد استطاع أن يكون له جيشا قاده بنفسه واجه به جيش (يوسف الفهري) عامل العباسيين في موقعة (موزاره) عام ٧٠٦ وبايعه الناس واستقل بحكم هذه البلاد، ولم يمض على زوال ملك بني أمية في دمشق سوى ست سنوات، وكان ذلك في خلافة (أبي جعفر المنصور).

ورغم انفراده بحكم البلاد وخضوعها له خضوعا كاملا فإنه لم يفكر في إعلان نفسه خليفة للمسلمين مع أنه قطع الخطبة عن العباسيين وجعل الحكم وراثيا في نسله. ويعتبر عبد الرحمن هذا – والذي لُقب (بالداخل) – المؤسس الحقيقي لدولة بني أمية في الأندلس، وكان حاكما سياسيا بعيد النظر حازما قوي الإرادة، وقد كسر شوكة الأمراء، وكانوا قد بدأوا يستقلون في إماراتهم، وقد سماه الشعب (بالعادل).

وفي عهده بدأ التنظيم السياسي القوي، كما بدأت النهضة الفكرية والمادية، وقد غذى هذه النهضة ونماها حفيده عبد الرحمن الثاني المعروف (بالأوسط) فكانا الممهدين لعظمة عهد الناصر وابنه المستنصر، وكان الداخل مولعا بالأدب يقول الشعر ويجيز عليه ويحترم العلم والعلماء، وقد سماه خلفاء العباسيين (صقر قريش) وقد بدأ التنافس العلمي والأدبي بين الغرب والشرق، وحالف هارون (شارلمان) ضد ملوك الأندلس الأمويين،

وأغار شارلمان بالفعل على أملاكهم في إسبانيا، وكان ذلك في عهد الحكم بن هشام بن الداخل وتمكن من احتلال برشلونة فكانت النواة الأولى لأول ولاية مسيحية في شمال إسبانيا.

وفي عهد عبد الرحمن الثاني غزا النورمنديون إسبانيا وهاجموا سواحلها ودمروا وخربوا عددا من موانيها، ولكنه استطاع أن يجليهم عنها فأمن ملكه وبدأ عهد الاصلاح الداخلي الذي وضع أساسه عبد الرحمن الداخل وظهرت عظمة الحكم وأبهة الملك في أبدع حللها وبخاصة بعد وصول الأديب الفنان (زرياب) وافدا عليه من بغداد.

* * *

الحالة الفكرية والأدبية قبل عصر الناصر

العلوم الدينية (الفقه):

كتاب الله الكريم هو مصدر التشريع الإسلامي، وأحكامه هي المرجع الأول والأخير للمسلمين جميعا، وهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والمصدر الثاني بعد القرآن هو سنة الرسول العظيم، ما عمله وما قاله، ولكن مسائل الدين ومشاكل المجتمع تعددت ولم يجد علماء المسلمين لبعضها نصا صريحا من الكتاب والسنة فكان لا بد من الاجتهاد وإعمال الرأي واستخدام القياس والاستنتاج واتباع رأي الصحابة الأول وما أجمعوا عليه.. وفتح الإسلام باب الاجتهاد والتفقه في الدين أمام كل عالم متمكن من علمه غيور على دينه مخلص في بحثه، وقرر لمن أصاب أجران، ولمن أخطأ عن غير قصد أجر أيضا.

وبعد المائة سنة الأولى من تاريخ الإسلام ظهر علماء أعلام ورعون أتقياء حذقوا فن اللغة، وحفظوا الأحاديث النبوية الصحيحة ودونوا الظروف التي قيلت فيها والملابسات التي صحبتها، وأخذوا من كل هذا أحكامهم وفتاواهم وتشريعاتهم المختلفة، وقد انقسموا إلى فريقين: فريق يحكم العقل ويأخذ بالقياس، وفريق يتمسك بنص الأحاديث، وكان على رأس الفريق الأول الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت المتوفى عام ١٤٩ هـ، وعلي رأس الفريق الثاني مالك بن أنس المتوفى عام ١٧٩ هـ. ولم يثبت عن أبي حنيفة أنه ألف كتابا في الفقه بالذات، وإنما روى عنه مذهبه أتباعه وتلاميذه وأشهرهم (أبو يوسف يعقوب الشيباني) قاضي قضاة بغداد، وهو أول من لقب بهذا اللقب في الإسلام، وقد انتشر المذهب الحنفي في العراق وفارس وخراسان وبلاد الترك والهند والصين وبعض بلاد مصر والشام.

أما مالك بن أنس سيد علماء المدينة فقد كلفه أبو جعفر المنصور في عام ١٤٣ هـ بجمع الصحيح عنده من أحاديث الرسول ليكون مصدرا للفقه وأصول الدين، وكان الإمام مالك خير حجة في هذا المضمار، فألف كتابه (الموطأ) وهو ثاني كتاب ألف في الفقه والحديث بعد الكتاب الذي كان قد أمر بتأليفه في الحديث الخليفة الأموي عمر بن العزيز، وشاع كتاب سيدنا مالك (الموطأ) ورضيته الأمة فكان أساسا لكل كتب الفقه التي ألفت بعده، وانتشر مذهب مالك في كل أقطار العالم الإسلامي وبخاصة في بلاد المغرب والأندلس. وتختلف الروايات فيمن أدخل هذا المذهب إلى الأندلس وعمل على نشره بها.



معلم الصبية يعينهم على حفظ القرآن الكريم

فمن قائل أنه يحيى ين يحيى الليثي البربري الأصل والمتوفى عام ٨٤٩ م، وقد ترك الأندلس شابا ورحل إلى الشرق وتلقى المذهب مباشرة عن صاحبه الذي أملى عليه (الموطأ) ولما عاد إلى وطنه نشر المذهب المالكي وتعصب له كل التعصب، وقد ازداد نفوذه وارتفع قدره وعلت منزلته، وكان الأندلسيون يعتبرون (الموطأ) المرجع الأول والأخير بعد القرآن ولا يأبهون لأي مذهب آخر، وقد قدره هشام الرضي الذي حكم بعد الداخل علماء المالكية وحظي عنده يحيى بن يحيى الليثي بمكانة رفيعة جدا فكان يشاوره حتى في تعيين القضاة.

وفي عهد الحكم الأول ابن هشام فقد علماء المالكية بعض نفوذهم إذ لم يكن الأمير الحكم معنيا كثيرا بأمور الدين، وكان محبا للملذات شغوفا

بالصيد، ولهذا أثار القاضي يحيى الصابئين الساكنين في جنوب غرناطة عليه وعلى الحكم، وكان هذا الجزء معروفا باسم (الربض) فثاروا فعلا عام ٨١٤ وثارت الفتنة، ولكن قضى عليها الحكم قضاء تاما ودكها دكا، ولهذا سمى بعض المؤرخين ابن هشام (بالربضي).

ولكن عادت للقاضي يحيى مكانته التي نعم بها في عهد هشام عندما ولي الحكم عبد الرحمن الأوسط، وقد نبغ في عصره من علماء المالكية المشهورين في الأندلس: عبد الملك بن حبيب، وقد رحل هو الآخر في صدر شبابه إلى الشرق وقصد المدينة وأخذ المذهب عن صاحبه، ويقول بعض المؤرخين مثل (المقري) أن لابن حبيب الفضل الكبير في تدعيم مذهب الإمام مالك في الأندلس.

وكان علماء المالكيين لا يؤمنون بالمذاهب الفلسفية ولا يقرون طرق الاستنتاج أو القياس، وكانوا يعارضون التجديد ويتمسكون بالقديم، ولعل هذه النزعة الرجعية هي التي أخرت النهضة العلمية والحركة الفلسفية فلم تزدهر النهضة إلا ابتداءً من عهد الناصر أو المستنصر الذي أوتي من العلم وسعة الأفق ما جعله داعيا صالحا للبحث العلمي البعيد عن التعصب والجمود.

وولي الحكم بعد الرحمن الأوسط ابنه محمد (٢٣٨ – ٢٧٣ هـ) وكان متعصبا فلما ثار عليه بعض نصارى قرطبة أخمد بشدة ثورتهم وأمعن في اضطهادهم، ولعل هذه المعاملة القاسية هي التي دعت (عمر بن حفصون) إلى إعلان العصيان عليه، وقد تولى قيادة المستعربين في جنوب

الأندلس، وكان أكبر خطر يهدد ملوك بني أمية في هذه البلاد.

وفي عهد الأمير (محمد) ظهر عالم يدعو إلى المذهب غير المالكي، وكان هذا العالم هو (بقي بن مخلد) (٢٠١ – ٢٧٢ هـ) وكان تقيا صالحا زاهدا في الدنيا وزخرفها شغوفا بالعلم واسع الأفق.. نشأ في قرطبة ثم رحل إلى المشرق في طلب العلم الذي أخذه عن شيوخ مكة والمدينة ومصر وبغداد ودمشق، وكانوا من مذاهب مختلفة وسمع من الإمام أحمد بن حنبل نفسه، وكان من ألمع تلاميذه. وكان فقيها مجتهدا لا يتقيد بمذهب بذاته، وكان مفسرا للقرآن من الطبقة الأولى، ولهذا ثار عليه فقهاء المالكية وتآمروا عليه، بل واستباحوا دمه واستعدوا عليه الأمير محمد بن عبد الرحمن، وكاد يذهب ضحية تعصبهم وجمودهم لولا أن تداركه لطف الله سبحانه وتعالى، وأنقذه منهم علم الأمير وعدله وحزمه؛ فقد أمر أن يؤتى به إلى مجلسه وأن يحضر معه الكتاب الذي يقرأ منه، وهو كتاب فقهي على مذهب الإمام أحمد بن حنبل (مسند بن أبي شيبة) وقرأ الأمير الكتاب وناقش في بعض محتوياته (بقيا)، فلما جاء على آخره التفت إلى خازن كتبه وقال (انسخ لنا منه صورة فخزائننا لا يمكن أن تستغني عن مثل هذا الكتاب) ثم التفت إلى (بقي) وقال له (انشر علمك وارو ما عندك) واستمر أبو عبد الرحمن، وتلك كانت كنيته في تدريس الفقه مع إعمال الرأي، وقد فسر القرآن الكريم تفسيرا قال عنه ابن حزم (إنه الكتاب الذي أقطع قطعا لا استثناء فيه أنه لم يؤلف في الإسلام مثله) ومات هذا الشيخ النابه المتحرر ولم يطمع في حياته في منصب ولم يتول أمرا من أمور الدولة.

* * *

الفلسفة والرأي الحر

ازدهت الفلسفة الإسلامية، أو بعبارة أدق، ازدهر الفكر الإسلامي خلال القرن التاسع الميلادي أو الثالث الهجري، واشتهر من فلاسفة المسلمين في المشرق ثلاثة أعلام هم: يعقوب الكندي العربي الأصيل، وأبو نصر محمد الفارابي، والشيخ الرئيس الحسين بن عبد الله بن الحسين، وكلاهما غير عربي. ولهم جميعا بلا شك آراء فلسفية قيمة، ولكن فكرة واحدة سيطرت علي آرائهم فقللت من إنتاجهم الفلسفي، وهي اعتقادهم الجازم بما قاله فلاسفة اليونان الذين أخذوا عنهم الحكمة والفلسفة وأنهم جميعا متفقون في الجوهر ومختلفون فقط في المنهج والطريقة، وفكرة أخرى خاطئة أيضا ألا وهي أن القرآن الكريم والسنة حق وأن آراء هؤلاء الفلاسفة حق أيضا، وأنه من الممكن التوفيق بين تعاليم ومبادئ الدين، وبين الفلسفة اليونانية التي جاء بها أرسطو وأفلاطون بصفة خاصة..

ولم تكن الظروف في الأندلس قبل الفتح العربي تؤذن فلسفة من نوع ما، وحتى إن وجدت بعض الآراء الفلسفية فلم تكن معروفة خارج دائرة رجال الدين، ولم تكن سنوات الفتح الأولى لتهيئ الأفكار للفلسفة، وحتى بعد قيام الدولة الأموية فقد شغل حكامها واتجهوا إلى تشجيع العلوم الدينية وإرضاء الفقهاء المالكيين ذوي النفوذ الكبير على العامة، وكانوا أشد الأعداء لكل جديد بله الفلسفة والآراء الفلسفية.

وقد رأينا ما كاد يحل بـ (بقي بن مخلد) ولم يكن فيلسوفا ولكن كان كل ذنبه أنه يجتهد، وأنه لا يقف عند مذهب معين، ولولا حماية الأمير

محمد بن عبد الرحمن له لاستباح المالكيون المتعصبون دمه، وقد تخلى صاحب أشبيلية عن صديقه الشاعر ابن هانئ ونصحه بالهجرة من الأندلس كلها عندما شاع أنه مولع بالفلسفة، وخشي أن يتهم هو أيضا بذلك فيتزعزع ملكه ويثور عليه العامة وقد عمل ابن هانئ بنصيحته ونفذها فعلا، وهجر الأندلس إلى المغرب.

ولكن لم تقف الأندلس رغم ذلك جامدة الفكر؛ فقد بدأت تتصل بالمشرق وبدأت علومه وآدابه تحمل إلى الغرب عن طريق من وفد من المشرق إلى الأندلس من العلماء والمفكرين، وعن طريق رحلات طلب العلم يقوم بها عدد من أهالي الأندلس إلى مراكز الإشعاع العلمي في مصر والحجاز والشام والعراق. ثم عودة هؤلاء الطلاب إلى بلادهم ونشرهم لما تعلموه علي أيدي علماء الشرق. ولهذا لا يعجب المؤرخ لعصر ما قبل الخلافة إذا طالعته حقائق آمن بها نفر من المتحررين في الأندلس رغم معارضة فقهاء المالكية المتزمتين، فنرى مثلا كتب الجاحظ تتسرب إلى الأندلس رغم أن الجاحظ من المعتزلة.

ويعتنق آراء الجاحظ علماء معروفون مثل أبي وهب عبد العلي بن وهب القرطبي، وكانت له مكانته عند الأمير عبد الرحمن الأوسط، ومثل خليل بن عبد الملك والذي أطلق عليه المالكيون اسم (خليل الغفلة) وقد أحرقوا كل كتبه بعد موته.

والفلسفة في أدق معانيها هي النظرة الحرة والتفكير غير المقيد، وقديما حصر العلماء موضوعاتها في الإلهيات والطبيعة والإنسان المتحرر في

الفكر، ولكن هذا التحرر قيده الجهل ثم الخوف، ولهذا اختار الإنسان الجاهل أسهل الطرق فرد كل ما خفي عنه سببه إلى القوى الخفية، وآمن بوجود الأرواح والأشباح والآلهة المتعددة وأنصاف الآلهة واعتنق الأساطير وتناقلتها الأجيال جيلا بعد جيل حتى تخلص العقل البشري من قيوده وانقشعت عنه سحب الخرافات فبدأ يتفلسف من جديد.

وتتلمذ على خليل بن عبد الملك الذي ذكرناه آنفا عدد من التلاميذ كان من أنجبهم وأنبغهم (محمد بن عبد الله بن مسرة) الذي عاش في عهد الأمير عبد الله جد الناصر، ولم يكن هذا الأمير ليتسع لمثل ابن مسرة صدره كما لم يكن على درجة من التسامح تطمئن هذا العالم المتفلسف على نفسه في ظله، ولهذا استصوب ابن مسرة الهجرة من قرطبة فسافر إلى القيروان ثم إلى مكة. وبعد فترة عاد إلى وطنه واعتزل الناس ومجتمعاتهم واتخذ له مسكنا بعيدا عن العمران في جبل (قرطبة) ولم يكن يفد عليه ويتلقى عنه علمه إلا نفر من طلاب العلم، وكان ظاهر علمه التصوف وباطنه مناقشة المسائل مناقشة حرة على طريقة المعتزلة. وتسربت آراؤه ووصلت إلى الشرق ودرست رغم اعتكافه في كهفه ومات في عهد الناصر عام **٣١٩** هـ

هذا كان حال الفلسفة قبل عصر الخلافة، وسنرى فيما بعد كيف بدأ التفكير الحر يتخلص من القيود المفروضة عليه وكيف بدأت الفلسفة تتطور التطور الذي أدى إلى ظهور أمثال ابن باجه وابن الطفيل وفيلسوف المغرب (ابن رشد).

* * *

الحياة الأدبية

الأدب والحياة

الأدب هو ترجمان صادق لأحاسيس الإنسان المختلفة حيال آماله فيها وألمه منه، ولكل مجتمع خصائص معينة ورثها عن آبائه وأجداده فله تقاليده وعاداته المنبثقة من بيئته، وله نوع من الثقافة يتميز بها عن باقي المجتمعات الأخرى. وبمقدار تحكم الإنسان في بيئته يكون تقدمه وازدياد حضارته ومدنيته، فالإنسان قادر على التنقل من بيئة لأخرى وقابل للتشكيل إذا عاش في بيئة غير بيئته التي نشأ فيها وفي قدرته على التقليد والتفاهم ما يجعله يتأقلم ويتواءم مع بيئته الجديدة.

ويلاحظ في غزو العرب للبلاد المتعددة أن الغزاة رغم احتفاظهم ببعض الصفات الأصلية فيهم، كالنزعة إلى الاستقلال والميل للعصبية والاعتداد بالنفس، فإنهم تأثروا بالحضارات التي امتزجوا بها مثل حضارة الروم في الشام وحضارة فارس، وقد اقتبسوا من هذه الحضارات كثيرا من أنظمة الحكم وطرق الري والجباية والتأنق في الملبس والمأكل، وتسربت إليهم عن طريق التمازج عادات جديدة وتقاليد لم تكن من تقاليدهم وهم في بطون البادية. ويقول علماء الاجتماع أن آخر ما يحتفظ به الإنسان بعد نزوحه إلى بيئة جديدة هو العقيدة لتأصلها في النفس ورسوخها فيها.

ولكن عندما تتغلب أمة على أمة أخرى، وتكون الغالبة أعلى حضارة ومدنية من المغلوبة على أمرها، نرى تيار التقليد يقوى ويتم التفاهم بطريقة أسرع، وبذلك تتلاشى شخصية الأمة المغلوبة وتفنى تدريجيا في شخصية

الأمة الغالبة، وهذا ما حدث بالفعل لأهالي إسبانيا، فقد شعروا بفارق كبير بين الظلم الذي كانوا يعانونه والفوضى التي كانوا يعيشون فيها وبين التسامح الذي امتاز به الحكم العربي والعدالة التي عمل العرب على نشرها، ولهذا نجد كثيرا من الأهالي يعتنقون الإسلام ويتعلمون لغته العربية ويندمجون في الغزاة من العرب، ويظهر من بين هؤلاء أدباء وشعراء بل وعلماء وفقهاء وفلاسفة..

ويحتاج انتقال الحضارة والعلوم والآداب إلى وقت قد يطول وقد يقصر، وذلك متوقف على مدى استعداد كل شعب للامتصاص والتقليد، وقد أثبت المستعربون في الأندلس استعدادهم لتلقي الثقافة العربية وامتصاصها وهضمها بسهولة، فقد أحسنوا لغة الحديث، وأتقنوا لغة العلم وشغفوا بالأدب منثورا ومنظوما وأولعوا بالفن والغناء والموسيقي وافتنوا في الغناء فابتكروا ألحانا وخلقوا أنواعا من الشعر لم يقلها العرب أنفسهم ولم ترد في شعرهم، وتحللوا من التزام القوافي والبحور بل ومن التمسك بالعربية الفصحى، فظهر في أرضهم الزجل بعد الموشحات، ثم انتقل ما ابتكروه إلى المشرق وانتشر فيه مع أن الأصل في ثقافتهم جاء من المشرق.

والواقع أنهم بدأوا حياتهم الأدبية في الأندلس ابتداءً من عصر (الداخل)، وكان عصره بداية الاستقرار السياسي والتطور الأدبي، وكان هو شخصيا أديبا وفنانا وشاعرا، وفي بلاطه ظهر أول شعراء الأندلس، ولو أن مستوى شعرهم لم يكن ليصل إلى المستوى الذي وصل إليه الشعر في دمشق أو بغداد، فمن قول عبد الرحمن الداخل في الفجر بنفسه:

إن الملـوك مـع الزمـان كواكـب نجـــم يطالعنـــا، ونجـــم آفـــل
والجـرم كـل الجـرم ألا يغفلـوا أيـــروم تـــدبير البريـــة غافـــل؟

ويقول قوم:

ســــــــعده لا عقلــــــــه خـير السعادة مـا حماهـا العاقـل

ونستمع له وهو يخاطب قومه (بني أمية) بعد أن أسس لهم ملكا بعد زوال ملكهم بالشام وإحياء دولتهم بعد زوالها:

أبـني أميـة قـد جـبرنا صـدعكم بالغـرب رغمـا والسـعود قبائـل
مـا دام مـن نسـلي إمـام قـائم فالملـك فـيكم ثابـت متواصـل

ورأى الأمير مرة نخلة في قصر الرصافة فهيج منظرها شجنه فأنشد يقول:

يا نخـــل: أنـــتِ غريبـــة مثلـــي في الغـرب، نائيـة عـن الأصـل
فـابكي، وهـل تبكـي مكيسـة عجمـاء، لم تطبـع علـى خبـل؟
لـو أنهـا تبكـي، إذن لبكـت مـاء الفـرات ومنبـت النخـل
لكنهـــا ذهلـــت، وأذهلـــني بغـض بـني العبـاس عـن أهلـي

وكان معظم الأمراء الأمويين يقولون الشعر ويقربون إليهم الشعراء ويجزلون لهم العطاء، وكان في بلاطهم يجتمع العلماء والأدباء والشعراء ويتبارون في إظهار إنتاجهم والتعبير عن خواطرهم، وكان الشعراء الأولون في الأندلس يترسمون خطى الشعر القديم ولا يخرجون عليه، ولكن ذلك لم يدم طويلا فقد تطور الشعر في المشرق في العهد الأول لبني العباس وتعددت أغراضه على يد الشعراء المولدين مثل: بشار بن برد، وأبي نواس، وكان لزاما أن يتطور شعر الأندلس أيضا بعد أن أصبح مجتمعه لا يقل

رفاهية وترفا وانغماسا في الملذات عن مجتمع بغداد في أزهى عصورها وأكثر ترفا.

ويملأ الفخر نفس الحكم بن هشام بعد أن قضى على فتنة (الربض) في قرطبة فيقول:

حميت ذماري وانتهكت ذمارهم ... ومن لا يحامي ظل خزيان ضارعا
ولما تساقينا سجال حروبنا ... سقيتهم سما من الموت ناقعا
وهل زدت أن وفيتهم صاع قرضهم ... فوافوا منايا قدرت ومصارعا
فهاك بلادي إنني قد تركتها ... مهادا ولم أترك عليها منازعا

ومن هذه النماذج نستنتج أن الطابع القديم كان لا يزال غالبا، وأن الاتجاه الجديد في الشعر الأندلسي إنما بدا جليا في حكم عبد الرحمن الثاني؛ فقد عاش في عصره الشاعر يحيى بن الحكم البكري الذي لقب (بالغزال) لجماله، وكان شاعرا ظريفا خفيف الروح.. وفي اتجاهات شعره وأسلوبه بعض الشبه بأبي نواس، وقد عاش مثله مجالس الأنس والخمر ومباهج الحياة المترفة التي عاشتها قرطبة في عهد عبد الرحمن الأوسط، وبخاصة بعد أن حل بها زرياب، وكان هذا الشاعر الرقيق يحقد على (زرياب) لمكانته عند عبد الرحمن الأوسط، وأوغل في حقده فأكثر من هجاء (زرياب) فغضب عليه الأمير لذلك ونفاه فذهب إلى العراق بعد وفاة (أبي نواس) بقليل، ومن طريف شعره قوله:

قالت أحبك، قلت كاذبة ... غُري بذا من ليس ينتقد
هذا كلام لست أقبله ... الشيخ ليس يحبه أحد

سـيان قولك ذا وقولك　　إن الـريح تعقدها فتنعقد
أو أن تقـولي النـار باردة　　أو أن تقـولي المـاء يتقـد

واجتمع (الغزال) ببغداد بجماعة من أدباء العراق ممن لا يعترفون بشعر الأندلس وممن كانوا يستهجنونه، وجاء ذكر أبي نواس فقال لهم من منكم يحفظ لأبي نواس قوله، وأنشدهم بعض أبيات له من قصيدة كان مطلعها:

تداركت في شرب النبيذ أخطائي　　وفارقـت فيـه شـيمتي وحيـائي

فلما سمعوا ما أنشدهم لم يشكوا في أنه لأبي نواس، وأخذوا في مدحه وأفرطوا في المدح، مما جعله يخبرهم بأن الشعر له وليس لأبي نواس فخجلوا من موقفهم السابق وافترقوا عنه.

ومصداقا لما طرأ علي الشعر في موضوعاته واتجاهاته، نرى الأمير عبد الله نفسه وكان شاعرا كأجداده وأسلافه لا يكثر من قول الشعر في الفخر كسابقيه، ولكنه يقوله في الغزل، وذلك مثل قوله:

ويحـي علـى شـادن كحيـل　　في مثلـه يخلـع العـذار
كأنمـا وجنتيـه ورد　　خالطـه النـور والبهـار
قضـيب بان إذا تثـنى　　يـدير طرفـا بـه احـورار
فصـفو ودي عليـه وقـف　　مـا أطـرد الليـل والنهـار

ومن شعراء هذه الفترة (سعيد بن جودي) الذي أبلى بلاء حسنا في الجهاد ضد عمر بن حفصون، وكان يتغزل في جارية سيده الأمير (عبد الله)، وكان اسمها (جيجان)، وهو القائل:

أعطيت جيجان روحي عن تذكرها ... هـذا ولم أرها يوما ولم تـرني
كـأنني واسمها والـدمع منسكب ... من مقلتي راهب صلى على وثن

وهو القائل أيضا:

جريت جري جموح في الصبا طلقا ... وما خرجت لصرف الدهر عن طلقي
ولا انثنيت لداعي الموت يوم وغى ... كما انثنيت وحبل الحب في عنقي

* * *

الشعر والغناء

فتحت الأندلس والدولة الأموية في أوج عظمتها وفي وقت تنوع فيه الشعر العربي فنا وأسلوبا، وإن كان لم يخرج وزنا وقافية عن الشعر الجاهلي، ولكن يلاحظ أن الأراجيز عني بها عناية فائقة فبلغت منزلة القصائد والرجز كما يقول بعض الأدباء (أبو الشعر)، والأصل في الشعر أن البدوي قاله ليحدو به إبله ثم جاشت بخاطره خواطر أثارتها طبيعة الصحراء، فهذا ظبي جميل شارد، وهذا صبح مشرق طالع، وهذه سماء صافية، وهذا نخيل نام ونبع ثجاج.. وتدرج الشعر فقيل في المدح والهجاء والفخر والرثاء، ثم سما الشعر وبدأ يعبر عن العاطفة، ويرى بعض النقاد أن ما يستحق أن يوصف بالشعر هو هذا النوع الأخير النابع من الوجدان والمعبر عن الانفعالات، وكان أكثر ما قاله العرب في هذه الناحية غزلا ونسيبا ووصفا للتلاقي مرة وللفراق مرة أخرى. ودعا هذا إلى رقة الأسلوب، ودعت هذه الرقة بدورها إلى التغني والتطرب ببعض أبيات الشعر التي تقال في الغزل، وشجع خلفاء الأمويين هذا النوع الأخير لميلهم للترويح عن النفس،

وأصبحت لهم بطانة من الشعراء المغنيين والشاعرات المغنيات وغصت بكل هؤلاء مجالسهم، وظهر في العصر الأموي شعراء اشتهروا بالغزل القصصي والغزل البريء أيضا، ونحا شعراء الأندلس نحو شعراء بني أمية، ولكن الزمن تطور وشاع الغزل السافر في العهد العباسي فاحتضنه كثير من شعراء الأندلس ومن بينهم الشاعر (الغزال) الذي نوهنا عنه، وهو يقول في وصف تهتكه:

ولما رأيت الشرب أكدت سماهم تأبطت زقي واحتبست عنائي
ولما رأيت الشرب أكدت سماهم فثاب خفيف الروح نحو ندائي
فقلت: أذقنيها. فلما أذاقها طرحت إليه ربطتي وردائي
فقلت: أذقنيها. فلما أذاقها بذلت له فيها طلاق نسائي
فو الله ما برت يميني ولا وفت بذلت له فيها طلاق نسائي
فأبت إلى صحبي، ولما أك واثبا فكل يفديني وحق فدائي

فأين هذا من قول عمر بن أبي ربيعة مثلا:

وعصيت فيك أقاربي فتقطعت بيني وبينهم عرى الأسباب
وتركتني لا بالوصال ممتعا يوما ولا أسعفتني بثواب
فقعدت كالمهريق فضلة مائه في حر هاجرة للمع سراب
يشفى به منه الصدى فأماته طلب السراب ولات حين طلاب

أو قول (جرير):

إن العيون التي في طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله أركانا

وقد افتن شعراء الأندلس في الغزل بنوعيه المستور منه والسافر، وفي

وصف مجالس الأنس والخمريات، وزادوا في شعر الغناء جديدا أخذ عنهم، فيقول شاعرهم في وصف الخمر ومجلسها متغزلا هائما:

هات كأس الراح أو خذها إليك ... ينــزل اللهــو بهــا بــين يــديك
ريقــة العــيش بهــا فــاخلع علــى ... شــفتيها كــل حــين شــفتيك
واطـــع فيهـــا نـــديمك بمـــا ... حكمــا واعــص عليهــا عاذليــك
واذا ســـقيت منهـــا شـــفقا ... طلعـــت حمرتـــه في وجنتيـــك

إلى أن يقول:

فاوضـت في الوصـل عيـني عينهـا ... فازدهرت عجبا وقالت ما لديك
أعليــك أنــت؟ مــاذا تشــتهي؟ ... قلــت: قطفــي بيــدي رمانتيــك

ثم يلحظ أنه أوغل في السفور فيستدرك ويقول علي لسانها:

فانثنـــت كـــبرا وقالـــت ويلتـــا ... أو هـــذا كلـــه يطلـــب؟ ويـــك!
أنا شمــــس وبعيـــــد فلكـــــي ... وضــيائي نافــر مــن راحتيــك
لــو بــدا أمــرك لي مــن قبــل ذا ... مـــا رأت ناظـــرتاي ناظرتيـــك

واستخدم المولدون في العصر العباسي البحور القصيرة في الغزل والمجون والتغني، وقيل أن أبا نواس اخترع بحورا جديدة لم يقل العرب شعرا على وزنها، وقيل هذا أيضا بالنسبة للخليل بن أحمد، وفيما نظمه ابن المعتز ما يعتبر بداية لظهور الموشحات، إذ يجدد فيقول على غير مثال سابق:

أيهـا السـاقي إليـك المشـتكى ... قــد دعــوناك وإن لم تســمع
ونـــــــــــديم همـــــــــــت في غرتـــــــــــه
وبشـــــــــرب الـــــــــراح مـــــــــن راحتـــــــــه

كلمـــــا اســـــتيقظ مـــــن ســـــكرته

جــذب الــزق إليــه واتكــا وســـقاني أربعــا في أربـــع

وفي هذا تنويع للقوافي في شطور كالتي بين البيت الأول والأخير مع التزامها في هذين الشطرين، وهكذا.

أما الموشح والافتنان به واتخاذه مادة للغناء فأندلسي لحما ودما، وعنهم أخذه المشارقة، ومخترع الموشح في الأندلس "مقدم بن معافى القيري" من شعراء الأمير عبد الله، وأخذ عنه أبو عبد الله أحمد بن عبد ربه، ثم عبادة بن القزاز، وغيرهم.

ويبدو أن الغناء كان السبب في تحطيم القافية أو الاكتفاء بجزء منها دون البحر كله، فالأصل في الرجز "مستفعلن" مكرر ثلاث مرات، ولكن المغني قد يكتفي مأخوذا باللحن بواحدة فقط مثل قول بعض المغنيين في مدح موسى الهادي:

موســـــــى المطـــــــر غيـــــــث بكـــــــر

ثم انهمـــــــــــــر ألـــــــوي المـــــــرر

عـــــــدل الســـــير باقـــــــي الأثـــــــر

خـــــير البشـــــــر فـــــــرع مضـــــــر

وقول آخر:

طيـــف ألم بـــذي ســـلم العـــتم يطـــوي الأكـــم

وغلب الشعر الغنائي على جميع فنون الشعر الأخرى في عهد المنصور، وقد اشتهر به الرمادي "يوسف بن هارون"، ويعزو بعض نقاد

الأدب ظهور الموشح والزجل في الأندلس إلى المستعربين وعدم وقوفهم عند الأوزان القديمة، وقد أصبحت هذه الموشحات والأزجال لونا من الأدب الشعبي الذي عم الأندلس وعاش بها إلى النهاية، ويصاغ الزجل في فقرات تسمى مجازا أبياتا، وتبدأ مقطوعته ببيت يعرف "بالمركز" تليه أغصان ذات قافية واحدة ووزن واحد، ويتكون الغصن منها من ثلاثة مصاريع أو أكثر، ثم يعقبها بيت في نفس وزن بيت المركز وقافيته وهكذا.

ويدخل الزجل اللفظ العامي الدارج، وكانت العامة تتغنى به في الطرقات وهو أشبه ما يكون بما يؤلفه اليوم مؤلفو الأغاني. أما الموشحة وإن كانت تغنى أيضا إلا أنها تصاغ باللغة الفصحى، وهذا ما يميزها عن الزجل. واشتهر بالزجل "أبو بكر بن قزمان"، ونشأ بقرطبة، وكان كثير التردد على "أشبيلية"، وقيل أن أزجاله رويت في بغداد، وقيل أنه في الزجل كالمتنبي في الشعر.

وهذا مثال من الزجل، وترى أنه يمزج فيه بين الفصحى والعامية، ولكن الفصحى غالبة في مثل هذا النوع:

يا حادي العبس ازجر بالمطايا زجر	وقف على منزل أحبابي قبيل الفجر
"وصيح في حيهم" يا من يريد الأجر	بنهض يصلي على ميت قتيل الهجر

أما معظم أزجال ابن قزمان فكانت العامية الدارجة فيها أكثر، وقد يستعمل ألفاظاً أصلها إسباني، كقوله من زجل طويل في الغزل:

وإلى هـــــذا الجـــــلال	منظـــر "لـــس ل" مثـــال
"أ ج" بحـــال دارة هـــلال	أو بحـــال "وجـــد شـــول"

"ليس ل"، ويقصد ليس له، "أج" و"وج" معناها = وجه، "دشول" معناها بالإسبانية "الشمس"، ويقصد أن منظر وجه حبيبه فوق ما فيه من جلال ليس له مثال إلا حسن وجه الهلال وضياء وجه الشمس، ثم يردف ذلك بقوله:

لا دنـــــوت حــــتى نــــراك   فالبلـــــد قاضـــــي كـــــذاك
وتـــــرى غايـــــة منـــــاك   ولا يلحقـــــك خمـــــول

والمصاريع الثلاثة الأولى ذات قافية واحدة، ثم يعقبها البيت الذي على وزن المركز، ويتكرر ذلك في الثلاثة المصاريع الثانية، وفي البيت المطابق أوزان المركز... أو بحال.. وجد شول، مثله.. ولا يلحقك خمول.

وقيل أن ابن عبد ربه صاحب كتاب "العقد الفريد" كان أول من سبق أهل الأندلس في نظم الموشحات وان ابن عمه "سعيد بن عبد ربه" اشتهر بالزجل، ولعل ميل هذا الشعب للغناء قد أوحى به، وأقبل على نظم الموشحات بعض شعراء الأندلس المجيدين للشعر الفصيح، ومن لهم قصائد معروفة، منهم "أبو بكر بن اللبانة الداني"، وقد رثى الرشيد بن المعتمد بموشحه وابن عبادة القزاز، وكان يقول الموشحات مدحا في بني صمادح حكام "آلمرية".

واعتاد أهل الأندلس التغني بالأزجال جماعات أن ينشدوا "الخرجة" جماعة عقب كل فقرة ينشدها المنشد وحدها، ويصاحب الجماعة آلات موسيقية كالعود والناي والطنبور والدف والصاجات وربما تخللها الرقص أيضاً.



زرياب في الأندلس

نقطة تحول في مجتمعه

بدأ الغناء العربي في أرض الحجاز في مكة والمدينة، وظهر في الأولى مغنون أمثال "أبو سريج"، وابن محرز، وظهر في الثانية مالك ومعبد واستمع خلفاء بني أمية في مجالسهم سمرهم للغناء من غلمان وجوار، وكانت لهم مجالس أنس دائمة وسهرات ممتعة، وأحب الغناء وأجازه خلفاء بني العباس الأول إلى عهد المهدي، وكانوا يحبون اللهو البريء ومجالس الغناء بغير خمر، ولكن البرامكة وقد انحدروا من أصل فارسي عريق النسب وشبوا على الترف والنعيم وكانوا أقل تحرجا من ناحية الدين أعادوا بعض ما كان

عليه الفرس من طرب وأدب وخمر واحتضنوا المولدين من الشعراء، وقد كانوا منهم، ونشروا ثقافة من نوع رقيق وأساليب للحياة تتفق مع ذوقهم السليم ومزاجهم الشاعري، وأجزلوا للشعراء والندماء العطاء، وفتحوا أمامهم أبواب المناصب فراجت سوق الغناء أيما رواج.

واشتهر في عهد الرشيد إبراهيم الموصلي وابنه اسحق. وإبراهيم كما أوضحنا في كتابنا الأول عن "المأمون العباسي" فارسي الأصل ولما بلغت شهرته المهدي استدعاه فغناه وأعجب به وقربه، ولكن ما أغضبه عليه إدمانه للخمر فسجنه. ولما ولى الخلافة "الهادي" عفا عنه وقربه وأغدق عليه عطاياه وكذلك فعل معه الرشيد.

وقد أشاع الموصلي وابنه في بغداد جوا من الظرف وأدب الخطاب فعني الناس برقة الحديث وإنشاد المقطوعات والتندر بالملح والطرف والتأنق في الملبس والمأكل وبناء المساكن وإحاطتها بالحدائق الغناء والبساتين الزاهرة والنافورات، وأكثر الموسرون من شراء الغلمان والجواري الحسان، وقد أعد الموصلي وابنه طبقة من الجواري معلمات أدب الخطاب والحديث، عارفات بفن الزينة ملمات بالغناء والعزف حافظات وراويات لأملح الشعر وأعذبه، وكان ثمن الجارية يقاس بما تحذق من هذه الفنون قبل امتيازها في الحسن والجمال.

وفي هذا الجو الفني البديع نشأ "زرياب" وتتلمذ على إسحق بن إبراهيم الموصلي، وكان في الأصل مولى للخليفة المهدي وكان ذا موهبة نادرة في فن الغناء وله حذق كامل بأفانينه، يعزف على آلات الغناء ويجدد

فيها، وكان في الوقت نفسه عالماً وأديباً يحفظ من شعر الغناء ما يربو على العشرة الألاف مقطوعة بألحانها.

استدعاه الرشيد مرة الى مجلسه، وكانت قد سبقته إليه شهرته فسأله الرشيد عن فنه، وكان الرشيد من المولعين بالغناء، المجيدين لحفظ الألحان، حتى قيل أنه كانت يصحح لإسحق بعض ما يشذ فيه من ألحان. وأجاب "زرياب" على سؤال الرشيد فأحسن الجواب فقال: "أحسن يا مولاي ما يحسنه الناس، وأكثر ما أحسنه لا يحسونه مما لا يحسن الا عندك ولا يدخر إلا بك فإن أذنت غنيتك ما لم تسمعه أذن قبلك"، فأذن له فغناه:

"يا أيها الملك الميمون طائره هارون.. راح إليك الناس وابتكروا"

وعلا فن "زرياب" وظهر نبوغه، وخشي أستاذه تفوقه عليه، واستئثاره بالحظوة عند الخليفة دونه، وكان يعلم ما أوتي تلميذه من موهبة في الصوت وعلو كعب في الفن وحفظه للشعر وتمكنه من الأدب، ففاتحه في الأمر برفق وطلب إليه الرحيل عن بغداد، وأمده بما يحتاجه من المال. ورضي "زرياب" أن يخلي الطريق لأستاذه ويبتعد عن منافسته له وعزم على الرحيل إلى الأندلس، وكان موفقاً في اختياره إذ كان على عرش الأندلس أمير لا يحفل كثيرا بأمر الدين ويغرم باللهو ويعشق مجالس الأنس والخمر، مثل "زرياب" ضيف يحرص الحكم على استضافته والحرص عليه، فبعث إليه الحكم يستحثه على الحضور فحضر بالفعل ووصل الجزيرة الخضراء في أرض الأندلس، ولكنه فوجئ بخبر فجع له وشعر معه بخيبة الامل فقد نعي إليه الأمير "الحكم"، وفكر "زرياب" في العودة، ولكن

صاحبه المغني اليهودي "منصور" شجعه على القدوم على الأمير عبد الرحمن الثاني، فلقيه ولقي منه كل إجلال وحفاوة وكل قربى، وقد علت عنده مكانته وأجرى عليه الأموال، وأغدق عليه كل الإغداق، ثم جعله نديمه في مجلسه ومستشاره الخاص في أموره، فحسده المقربون من الأمير، ولكن ثقة الأمير به لم تترك لواش به مجالا فأطلق يده في بلاطه وقصوره وحاشيته؛ فطور "زرياب" حياة مجتمع الأندلس تطويرا جعله ينافس بحق مجتمع بغداد وأصبحت قرطبة عروس المغرب بجدارة كما كانت بغداد عروس المشرق.

وجد "زرياب" في الأندلس ملكا يفوضه في كل ما يقترح، وشعبا مرحا ميالا بطبعه للغناء والموسيقى، وله مواهب واستعدادات للأخذ بكل جديد وله تذوق فني ظاهر، وبخاصة المنحدرين من سلالة القوط والنازحين من صقلية وقد صقلهم الذوق العربي وأغرموا بالشعر وافتنوا به، وابتدعوا الموشحات والأزجال وتغنوا بها فرادى وجماعات، ولهذا وجد التربة الخصبة لنمو فنه والمجتمع الواعي لفهمه، وجدد زرياب وأبدع ووضع لرجال البلاط ثم للشعب من بعدهم نماذج لملبسهم ومأكلهم وطرق تفاهمهم، وارتفع بمستواهم الأدبي والفني مما جعل عهد عبد الرحمن الثاني من أزهى عصور الأندلس حضارة ومدنية وتقدما في الآداب والفنون، وما مهد الطريق كما قلنا لعصر الناصر عبد الرحمن الثالث.

* * *

عبدالرحمن الناصر

(٣٠٠-٣٥٠ هـ) (٩١٢ – ٩٦١ م)

كتب عنه أحد مؤرخي الأندلس يقول: "واتصل ملك عبد الرحمن خمسين سنة، وفي عز منيع وسلطان قاهر، وافتتاح للبلدان شرقا وغربا، ومع غزو العدو والغلبة عليه وانتساف بلده وهدم حصونه، لا يلقى ذلا ولا يرى في شيء من أموره نقصا، وتناهي ذلك السعد حتى فتح الله له ما وراء البحر من المدن الجليلة والمعاقل المنيعة كسبته وطنجة وغيرهما ودان له أهلها فاستعمل عليها القواد وحصنها بالرجال وأمدهم بالجيوش الكثيفة في الأساطيل، واستحكم من أمره ما لو اتصل عزمه فيه وتأييد الله عليه لغلب على المشرق فضلاً عن المغرب"

ثم يخلص المؤرخ في وصفه له ولا يتحرج فيقول: "وخلا بلذاته ومبانيه، فبلغ في ذلك مبلغا لم يبلغه أحد ممن تقدمه أو تأخر بعده. وأخباره في ذلك أشهر من أن توصف، واجتمع في دولته من عليه الرجال وسروات الكتاب خدمة لم يخدم الملوك مثلهم في فضل آدابهم واتساع أفهامهم"

وهنا يذكر المؤرخ عددا كبيرا من حاشية الناصر من فقهاء وأدباء وعلماء وشعراء، ولكنه يخص بالذكر منهم "منذر بن سعيد"، وكان واحد عصره في العلم والأدب وحسن الخطاب. ووصف منذر بن سعيد البلوطي هذا، عبد الرحمن الناصر وصفا بليغا لم يكن مبالغا فيه كثيرا، وقد قربه هذا الوصف من قلب الناصر ولم يكن يعرفه من قبل، وسنحت له هذه الفرصة عندما وفدت على بلاط الناصر سفارة بيزنطة، فعهد الناصر إلى ابنه

الحكم في اختيار من يقوم بالرد على السفير البيزنطي، فتقدم الحكم إلى "أبي علي القالي البغدادي" ضيف الخليفة وأمير الكلام وبحر اللغة أن يقوم، فقام وحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه صلى اله عليه وسلم، وبهت فيما لا وصل ولا قطع، ووقف ساكتا مفكرا فلما رأى ذلك منذر بن سعيد قام قائماً بدرجة من مرقاة أبي علي، ووصل افتتاحه بكلام عجيب بهر العقول جزالة، وملأ الأسماع جلالة".

أما الخطاب الذي ألقاه المنذر وأعجب به الناصر فمنه قوله بعد كلام طويل كله ثناء على الناصر: "وأنشدكم الله يا معشر الملأ. ألم تكن الدماء مسفوكة فحقنها؟ والسبل مخوفة فأمنها؟ والأموال منتهبة فأحرزها وحصنها؟ ألم تكن البلاد خرابا فعمرها؟ وثغور المسلمين مهتضمة فحماها ونصرها؟ فاذكروا آلاء الله عليكم بخلافته، وتلافيه جمع كلمتكم بعد افتراقها بإمامته حتى أذهب الله عنكم غيظكم وفى صدوركم وصرتم يدا على عدوكم بعد أن كان بأسكم بينكم"

إلى أن قال مادحا ذاكرا بعض أوصاف الناصر وعلو همته: "عزيمة صريحة، وبصيرة نافذة ثاقبة، وريح هابة غالبة، ونصرة من الله واقعة واجبة. وسلطان قاهر، وجد ظاهر، وسيف منصور تحت عدل مشهور، متحملا للنصب، مستقلا لما ناله في جانب الله من التعب حتى لانت الأحوال بعد شدتها وانكسرت شوكة الفتنة بعد حدتها".

ووصفه "دوزي"، وقوله في الوصف والتاريخ حجة فيقول: "عندما تولى عبد الرحمن الثالث كانت الدولة معرضة لانتشار الفوضى ومهددة

بالحروب الداخلية، وكانت الأحزاب السياسية متنازعة والسلطة موزعة بين أمراء مختلفين في النزعات والجنس، والدولة معرضة لإغارات المسيحيين المتربصين بها من الشمال".

هذه الصور الثلاث تصور لنا الى حد ما الشخصية التي سنتناولها بالنقد والدرس والتحليل، والتي استطاعت بما أوتيت من مواهب أن تحتفظ بالتراث الحضاري الإسلامي الذي كاد يندثر قبل تولي الناصر الحكم، والذي أخذ في الازدهار واستمر يزداد نموا ونضجا حتى في أحلك العصور السياسية في الأندلس وأضعفها من الناحية الاجتماعية. وقد لعب الناصر في الأندلس نفس الدور الذي لعبه من قبل جده الكبير – مجدد دولة بني أمية في دمشق – مروان بن الحكم.

* * *

تركة مثقلة

وهي تركة شاء القدر أن تكون من نصيب الناصر عند تولية الحكم، فقد انقضى حكم عبد الرحمن الأوسط في عام ٢٣٨ هـ وحتى نهاية القرن الهجري الثالث حكم الأندلس ثلاثة من بني أمية هم: محمد بن عبد الرحمن، والمنذر بن محمد، ثم عبد الله بن محمد.. ولم يسد السلام هذه الفترة ولم تستقر الأحوال في الأندلس خلالها.. لقد كانت فترة صراع عنيف بين قوى الشعب المختلفة وتعددت المؤامرات في تصور الأمراء وكثرت حوادث القتل، وظهرت تكتلات عنصرية ظلت مختفية طوال حكم عبد الرحمن الداخل والأوسط، ثم أخذت تعمل علانية في عهد خلفه، وكادت

تعصف بملك بني أمية، وحكم محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨ – ٢٧٣ هـ) نحو ثلث قرن، وكان متفقها في الدين مجلا للفقهاء المالكيين، محلا إياهم من مجلسه المحل الأول ملقيا إليهم بكبرى المناصب كالقضاء والمواريث، وكان من المقربين عنده منهم الفقيه القاضي يحي بن يحيى الليثي المتوفى في عام ٨٤٩ م. وحكم بعده ابنه المنذر (٢٧٣ – ٢٧٥ هـ) ولم يعمر في الحكم طويلا، فتولى من بعده أخوه عبد الله (٢٧٥ – ٣٠٠ هـ).

وفي عهد الأمير عبد الله هذا ازدادت نزعة الأمراء إلى الاستقلال بحكم مقاطعاتهم، ولم يأل الأمير عبد الله جهدا في إخضاعهم، ولكن نزاعا آخر شب بين قبائل العرب نفسها وبين القبائل المنحدرة من أصل عربي وبين البربر، ثم بين هذين العنصرين وعنصر المستعمر بين من أهالي البلاد، وبينهم وبين الصقليين النازحين من صقلية، وكانت ثورة ابن حفصون شجا في حلق الدولة وخطرا كبيرا يهدد كيانها.

لقد كانت القلاقل تسود البلاد والفتن تجتاحها بشكل مخيف، فقامت في عهد محمد بن عبد الرحمن الأوسط فتنة النصارى، وقد اشتط في إخضاعها وثار عليه بعض عماله مثل بني قسي سادة "أرغون"، وعمر بن حفصون الذي تقدم ذكره، والذي قاد المستعربين في جنوب الجزيرة، وعندما لجأ الأمير محمد إلى الامراء العرب ليعينوه استغلوا حاجته لهم وبدأوا يفكرون في الاستقلال بحكم مقاطعاتهم واشتد ساعدهم وعظم خطرهم في عهد الأمير عبد الله (٢٧٥ – ٣٠٠ هـ) الذي أبلى بلاء حسنا في إخضاعهم مستخدما منتهى العنف أحيانا..

وكان القصر القرطبي في عهد الأمير عبد الله ومن سبقه مسرحا للمؤامرات والدسائس، فنرى المنذر بن محمد (٢٧٣ – ٢٧٥ هـ) يتآمر على وزير أبيه "هشام بن عبد العزيز" ويقتله. وفي عهد أخيه الأمير عبد الله ينوى عليه ابنه والي "أشبيلية" ويتآمر على قتل أبيه فيحاربه أبوه ويأسره ثم يسجنه في قلعة "أشبيلية" حتى يقضي نحبه، ولهذا عهد بالملك من بعده إلى حفيده عبد الرحمن الثالث الذي لقب بعد ذلك بالناصر..

وولي الناصر أمر الحكم وهو يعلم أن الطريق أمامه مفروش بالأشواك وأن الأمر يتطلب يقظة لا تغفل وحزما وعزما وهمة لا تعرف الملل أو الكلل. عناصر مختلفة متوثبة وأمراء يدفعهم الطموح للاستقلال بمقاطعاتهم، وحركة قومية يقوم بها المستعربون في الجنوب، وأعداء يتجمعون ويتآزرون على الأخذ بالثأر من العرب في الشمال، وهذه هي التركة التي تركها للناصر للحكام الثلاثة الذين علموا بعد عبد الرحمن الأوسط (محمد، والمنذر، وعبد الله) شقاق داخلي ونزاع طائفي، وإمبراطورية كما يقول "دوزي" في طريق الفوضى وتكاد تقضي عليها الفتن والحروب الداخلية". ولكن همة الناصر لم تكن لتقعد عن مواجهة هذه الأخطار جميعها فارتفعت إلى مستوى هذه الأحداث الجسام، ثم قابلتها في قوة وحزم وحسن سياسة وبعد نظر وتغلبت على المشكلات المجتمعية واحدة بعد الأخرى متخطية كل الصعاب التي تعترضها وتقف في طريقها فأمنت الطريق ثم مشت فيه فكان لها ما أرادت من عزة ومجد واستقرار وسلام ورخاء.

قوى الناصر بطانته وأحسن اختيار حاشيته وجمع قلوبهم حوله

واجتذبهم إليه ليأمن ويطمئن، ثم نظر في تقوية جيشه الخاص، ولم يعتمد على جيش الأقطاع وقد أرهب جيشه هذا الأمراء الذين كادوا يستقلون في عهد جده، فأذعنوا له وأظهروا له الطاعة والولاء. وتدخل الناصر في أمر خطر الفرنجة في الشمال فاستطاع أن يفرق بينهم ثم أنزل الهزيمة بهم بعد أن تفرقت كلمتهم، وقضى بهذه السياسة الحكيمة على حركتهم فهابوه وأظهروا له الخضوع الكامل، ونظر بعد ذلك إلى خطر آخر بدأ يهدد ملكه وهذا الخطر هو اتساع نفوذ الدولة الفاطمية فلم تقعد همته عن مناجزتهم، وقد أنشأ في غرب البحر الأبيض أسطوله الذي أغار على ثغورهم وهدد أساطيلهم وقضى بحركته هذه على فكرتهم في إقامة دولة شيعية عالمية يحكمها مهديهم المستتر.

* * *

شخصية فذة

في وسط هذه العواصف الهائجة، وهذه الأمواج المتلاطمة، وفي قلب هذه الفوضى الغالبة، وهذه الأخطار المخيفة تولى قيادة السفينة الأمير عبد الرحمن الثالث فأعطى القوس باريها وتقلد أمر البلاد منقذها وحاميها. ولم يكتف هذا الربان الماهر بالوصول بالسفينة إلى بر الأمان، ولكنه جدد شبابا كان يذوي وقوى ملكا كاد يتهاوى، فتركه من بعده لابنه المستنصر بناء شامخا قويا مدعم الأساس؛ فبنى ابنه على أسس سليمة ملكا عريضا وأقام على ما خلفه له أبوه من ثروة مادية ومعنوية عصرا زاهرا من أزهى عصور العالم حضارة ومدنية وجاها وسلطانا.

إن عهدي الناصر والمستنصر عهدان متداخلان متكاملان، ولا يستطيع باحث أن يفصل ما بينهما، ذلك لان ما تعب الناصر في بذاره وسقيه استكمل في عهد المستنصر نموه ونضارته ونضجه.

وإذا كان المؤرخون للعصر العباسي يجمعون على أن عظمة عصر المأمون من غرس هارون الرشيد، فمؤرخو الأندلس حينما يؤرخون لعصر الناصر لا يفصلون بينه وبين العصر الذي تلاه، وكان من حسنات الناصر عنايته الفائقة بتربية ابنه هذا وتدريبه على شئون الملك وتبصيره بأساليب السياسة فكان بحق خير خلف لأعظم سلف.

وقد وصلت الدولة في هذا العصر الذهبي – عصر الناصر والمستنصر – الى أوج عزها، وسمت قوتها فثبتت دعائم الملك وانتشر الأمن والسلام وعمت الرفاهية وفاض الرخاء وتجلت أبهة الملك، وعظمت هيبة الحاكم فملأت الرهبة قلوب الأمراء في الداخل، وملأ الرعب ملوك أوروبا وحكامهم في الخارج وجعلوا يتقربون الى الناصر بالهدايا يحملها إليه سفراؤهم يخطبون وده، ويتقون بذلك بطشه، ووصلت سمعة العصر إلى المشرق؛ فحج إلى قرطبة – عروس المغرب – كل عالم نابه، ووفد عليها كل أديب معروف، وبدأت نهضة علمية لم تسمع عن مثلها دول أوربا التي كانت تئن تحت كلكل الجهل والفقر والتخلف.

وأصبح للناصر جيش قوي يلقي الرعب في القلوب ويقضي في وثبة من وثباته على كل فتنة تتحرك، ويخشاه كل طامع من الأجانب، كما كان أسطوله العظيم أكبر قوة ضاربة في غرب البحر الأبيض، يسيطر على جزره وشواطئه

وتخضع لقوته الخارقة للعادة مدن هذا البحر وموانيه ولا يجرؤ أسطول آخر أن يتعرض له أو يحتك به، ورغم قوة الأسطول الفاطمي وسيطرته على شرق البحر الأبيض لم يستطع أن يقاوم هجمات أسطول الناصر.

وقد عني الناصر باقتصاديات البلاد عناية غير مسبوقة؛ فاستخدم أحسن وسائل الري، فبنى القناطر وحفر الترع واستغل خصوبة الأرض إلى أقصى حد، كما أنه استخرج من باطن الأرض كنوزها ونفائسها فازدهرت في عهده الصناعة وراجت التجارة، وأصبح طريقها مأمونا في البر والبحر. وكان له ولع شديد بالمباني، وقد جعل من قرطبة عاصمة ملكه تحفة فنية وجنة من جنان الدنيا، ولم تكن تقل في عظمة مبانيها وكثرة بساتينها وحدائقها عن بغداد في أحسن عصورها.

أما النهضة الأدبية والعلمية التي شجعها بكل وسيلة والتي عني بها كل العناية فقد قام على حراستها وتعهد نموها وجنى ثمارها ابنه الحكم الثاني الملقب بالمستنصر، والذي كان يمثل الخليفة العالم المستنير الناهض خير تمثيل، وقد كان واحداً من أعلام العلم والأدب ونموذجا للتفكير الحر وعاملا في دفع النهضة في العلم والأدب في عصره والعصور التي تلت عصره دفعة قوية لم تنتكس من بعدها، بل ظلت بلاد الأندلس المنارة العالية المشعة لنور العرفان حتى قضى الله أن يخرج من هذه البلاد المسلمون العرب بعد أن أقاموا فيها قرابة ثمانية قرون، وبعد أن وصلت حضارتهم ومدنيتهم إلى الذروة.

* * *

إعلان الخليفة

الناصر الخليفة

في عام ٧٥٠م انتهت خلافة بني أمية في دمشق وانتقلت الخلافة الإسلامية إلى بني العباس الذين حكموا زهاء خمسة قرون من ٧٥٠ – ١٢٥٨ م وهي السنة التي أغار فيها التتار على بغداد، وادعى خلفاء العباسيين أنهم إنما يحكمون باعتبارهم ورثة للنبي عليه الصلاة والسلام، وأنهم بنو عمومته وأنهم إنما يحكمون وهم مفوضون من الله في حكم الشعب، وأن هذا التفويض ينتقل من خليفة إلى خليفة من أسرته الى ما شاء الله، ولهذا يقول أبو جعفر المنصور: "إنما أنا سلطان الله في أرضه"، ولهذا أيضا كان الخليفة العباسي يلبس عند توليه الخلافة "بردة" النبي عليه أفضل الصلاة والسلام.

ويقسم المؤرخون عهد الخلافة العباسية إلى فترتين: فترة القوة وتنتهي بعام ٢٣٢ هـ وفترة الضعف وتنتهي بعام ٦٥٦ هـ وفي هذا العام الأخير قتل "هولاكو" الخليفة المستضيء العباسي، ولكن خلال فترة ضعف الخلافة العباسية حدثت في المغرب أحداث لها خطرها؛ فقامت في هذه البلاد – بلاد المغرب – خلافة الفاطميين في عام ٢٩٧ هـ، أي قبل تولي عبد الرحمن الثالث بثلاث سنوات فقط، والفاطميون ينتسبون إلى فاطمة الزهراء بنت الرسول – أو هكذا ادعى من روج لدعوتهم – وهم "شيعة"، ويعتقدون بأن عليا رضى الله عنه هو الوارث الشرعي للرسول في خلافة المسلمين، وأن الخلافة لا يجب أن تخرج من بيت علي. وأن جميع من تولى

الخلافة قبل قيام خلافتهم مغتصبون لحقهم، وأن الإمامة الحقة لعلي ولمن يجيء من بعده من نسله، وانتقلت الخلافة الفاطمية من "المنصورية"، وفي المغرب إلى القاهرة في مصر بعد أن انتقل إليها المعز لدين الله الفاطمي، وبدأت بها الخلافة في عام ٣٦٢ هـ.

وفي الوقت الذي أقام الفاطميون فيه خلافتهم في المغرب في عام ٢٩٧ هـ كان الخليفة العباسي "المطيع لله" مغلوبا على أمره لا يملك حتى من أمر نفسه شيئا، وكانت الدولة مقطعة الأوصال ويحكم كل جزء منها حاكم مستقل تمام الاستقلال لا تربطه بهذا الخليفة المسكين إلا رابطة اسمية واهية يبقي عليها الحاكم نفسه ليضفي على حكمه نوعا من الشرعية يستر به اغتصابه للملك، فكانت فارس تحت حكم "معز الدولة" ابن بويه، والموصل وديار بكر وحلب في يد سيف الدولة بن حمدان. ومصر والشام في يد الإخشيد "أبو القاسم أونوجو"، والقيم عليه أبو المسك كافور، والبصرة في يد ابن رائق.

وعندما أقام عبد الرحمن الداخل ملكه في الأندلس، وكان ذلك في عهد المنصور العباسي، لم يدع الداخل الخلافة لنفسه فلم تكن الظروف مهيأة لمثل هذه الدعوى العريضة، وكان حاكما بعيد النظر خبيرا بشئون السياسة، عارفا بالاتجاهات الشعبية في بلاده، ولهذا لم يقطع اسم الخليفة العباسي من الخطبة في السنين الأولى التي حكمها واستمر يدعو للمنصور على المنابر، ولما أحس بتوطيد ملكه قطع الدعوة للعباسيين، ولكنه لم يعلن نفسه خليفة للمسلمين، وظل أمراء الأمويين الذين حكموا من بعده الى عهد الناصر يطلقون على أنفسهم اسم "أمير الأندلس" أو "ابن الخلفاء"

كل هذه الأحوال سواء ما كان يحدث منها في الشرق من اغتصاب الحكام للملك وضعف خلفاء بني العباس ضعفا لا يرجى برؤه أو علاجه، وادعاء الفاطميين في الغرب بأنهم أهل الخلافة دون سواهم، وخوف عبد الرحمن من استفحال شر هذه الدعوة على ملكه ومنافسة هذه الدولة الفتية له. كل هذا جعل عبد الرحمن الثالث يفكر في أمر ذي خطر عظيم، ومن كان في عزمه هذا الأمير وقوة شخصيته لن يطول تفكيره ولن يتردد في نفاذ أمر يقتنع بصحته أو بفائدته. لقد فكر ودبر، واستشار واستمع لآراء المخلصين له من رجال مملكته من قواد وعلماء فلم يجد فيهم إلا مؤيدين للفكرة مخلصين لها، وكانت الفرصة سانحة فانتهزها ثم أعلنها مدوية في أرجاء العالم الإسلامي، وكان صداها ذا أثر كبير في ظهور عظمته وعظمة ملكه.

في عام ٣١٦ هـ وبعد انقضاء ستة عشر عاما على تولي الناصر الحكم، أذاع على جميع عماله منشورا يعلنهم فيه بأنه قد اتخذ لنفسه لقب "أمير المؤمنين"، ويقول لهم بعد حمد الله وشكره والصلاة والسلام على نبيه ورسوله "وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا "بأمير المؤمنين"، وخروج الكتب عنا ورودها علينا بذلك. إذ كل مدعو بهذا الاسم منتحل له ودخيل فيه، ومتسم بما لا يستحقه".. إلى أن قال "وعلمنا أن التمادي على ترك الواجب لنا من ذلك حق أضعناه واسم ثابت أسقطناه. فأمر خطيبك بموضعك أن يقول به، وأجر مخاطبتك لنا عليه إن شاء الله والله المستعان"، واستهل خطيب جامع قرطبة خطبة الجمعة بذكر ذلك.

* * *

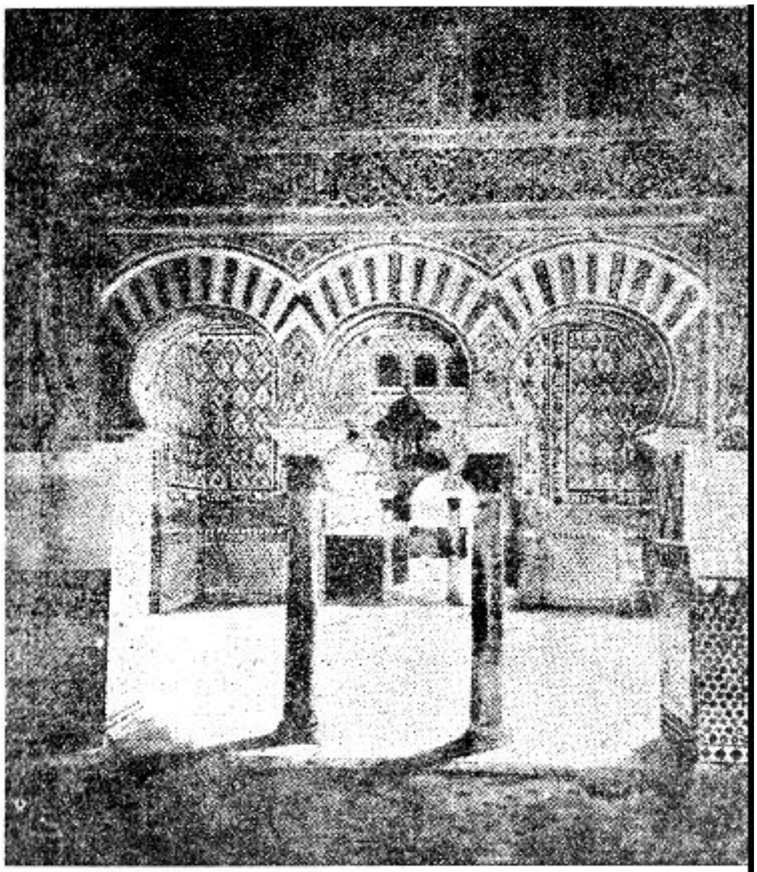
ولاية العهد

واختيار الناصر لولى عهده أثار مشكلة لا يعلم غير الله ما كان يمكن أن يترتب عليها من نتائج، فقد اتجهت نية الناصر الى أن يعهد بولاية العهد لابنه "الحكم" الثاني، وهو الذي حكم من بعده باسم الخليفة المستنصر. وعني الناصر بتربية ابنه الحكم عناية فائقة فوكل أمر تربيته إلى أعلام العلماء في الفقه واللغة والآداب والعلوم. وقد ذكر بعض المؤرخين أن من أسباب استقدام الناصر للعالم اللغوي الكبير "أبي علي القالي" من بغداد، هو قيامه على تهذيب وتثقيف ابن الناصر "الحكم الثاني"، وعين الناصر ابنه الحكم وزيرا له بعد أن عهد إليه بولاية العهد ليدربه على تصريف الأمور وممارسة السياسة بصفة عملية، وأثبتت الحوادث صواب رأى الناصر في اختياره هذا فقد كانت شخصية الحكم الثاني من ألمع الشخصيات التي حكمت الأندلس في عصر الخلافة ومن أعظمها وأقدرها فلم يذكر التاريخ له نظيرا في شغفه بالعلم وتشجيعه له.

وكان للحكم الثاني أخ لا يقل كفاية عن أخيه، وإن كان يختلف عنه في بعض النواحي فقد كان "عبد الله" هذا فقيها عالما متمسكا بالدين متعصبا له. مغرما بمجالسة العلماء والأخذ عنهم، ولهذا وقع تحت تأثير بعض ذوي الأغراض منهم وبخاصة أحد القضاة من ذوي المطامع وكان يدعى "أحمد بن عبد البر" فدبرا معا مؤامرة لخلع الخليفة وقتل "الحكم" ولي عهده وحيكت خيوط المؤامرة في الخفاء ودبرت في طي الكتمان، ولكن عين الناصر اليقظة لم تغفل عما دبراه فأحبط المؤامرة وزج بابنه "عبد الله" والفقيه ابن عبد البر في السجن.

وكان المتآمرون قد حددوا ثاني أيام عيد الأضحى من عام ٣٣٨ هـ لتنفيذ المؤامرة والتخلص من "الحكم" وأيقن الفقيه الثائر بأنه سيلقى مصيره المحتوم وأنه لا أمل له في الخلاص، فقيل أن الناصر قتله في نفس الموعد الذي كان قد حدده لقتل ابن "الحكم" وقيل أنه قتل نفسه بنفسه. أما عبد الله فظل في سجنه تحت الحراسة الشديدة زهاء عام ينتظر عفو أبيه، ولكن الناصر القوي الإرادة لم يكن ليعفو عن مثل هذه الجريمة البشعة، وتشفع "الحكم" في أخيه ولكن شفاعته لم تقبل عند أبيه وظل عبد الله في سجنه وقد غلب عليه اليأس فانتحر، وقيل أنه قتل، وخلا الجو للحكم الثاني ولم ينازعه في ولاية العهد بعد ذلك منازع.

وكانت إرادة الله سبحانه وتعالى أن يخلف الناصر في الحكم ابنه المستنصر الذي أكمل ما بدأه الناصر وزاد عليه، والذي كان عاملا قويا جدا في النهوض المادي والأدبي والوصول بالدولة إلى أوج مجدها وعزها فكان كما قلت آنفا الجاني لثمار ما غرس الناصر والحافظ لتراث الحضارة الإسلامية الزاهرة في الأندلس. ولم يقدر للخلافة أن تعمر بعد المستنصر طويلا ولكن قدر للحضارة والعلوم والآداب أن تمشي قدما إلى النهاية.



الواجهة الخارجية لمسجد قرطبة الجامع

قرطبة عاصمة الناصر

إذا كانت بغداد قد أطلق عليها اسم "عروس الشرق"، وأصبحت في عهد الرشيد والمأمون عاصمة الدنيا فقد أصبحت "قرطبة" في عهد الناصر والمستنصر "عروس الغرب" وأيضا عاصمة الدنيا. إنها لم تكن في هذه الفترة أقل شأنا من بغداد في تنسيقها وعظمة مبانيها وكثرة حدائقها ونافوراتها وجوامعها، وقد أصبحت منذ أن ولي الناصر الحكم محط رجال

علماء الشرق يقصدونها من كل فج والمركز الأول للعلوم والفنون والآداب ونبغ فيها أعلام العلماء والأدباء والفقهاء والفلاسفة.

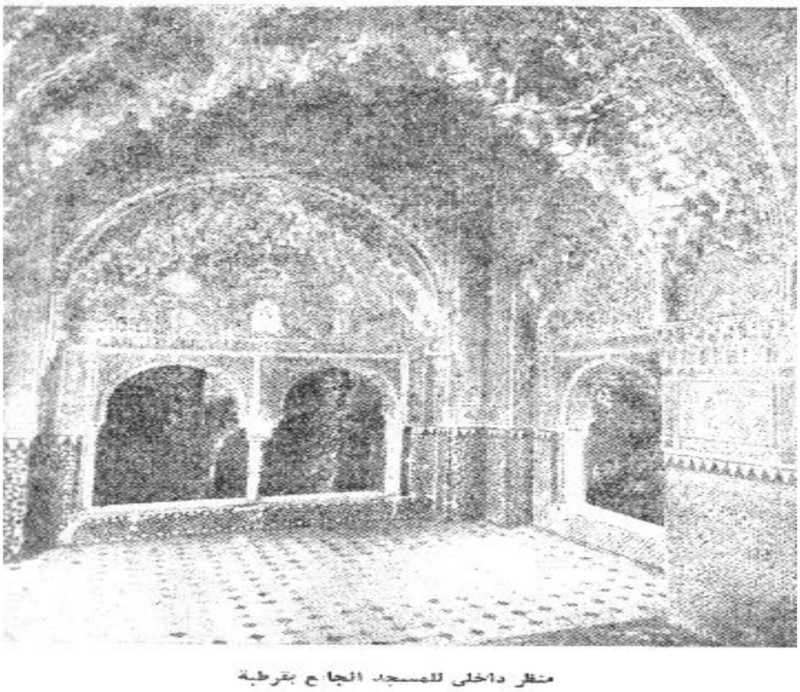
كما امتلأت بالمدارس والكليات وتدفقت على أهلها الأموال وعمهم الرخاء فاقتنوا القصور الشاهقات تحوطها بساتين الكروم وحدائق الأزهار، ورق طبع أهالي "قرطبة" وسما ذوقهم وتذوقهم للفنون وأغرموا غراما شديدا بالشعر ومطارحته وبالغناء والتغني بالموشحات وتأليف الأزجال فمالوا إلى اللهو والمرح، وأقتنى الموسرون منهم القيان والغلمان وعكفوا على إحياء لياليهم في غناء وخمر وسمر وتأنقوا في ملبسهم ومأكلهم وأصبح لهم طابع خاص يميزهم عن باقي سكان المدن الأخرى.

والمتأمل في نهضة قرطبة بعد بغداد، يدرك أن الشمس الغاربة في الشرق ابتداءً من عصر المعتصم العباسي قد أشرقت مجلوة مضيئة في الغرب الأندلسي ابتداءً من عصر عبد الرحمن الثاني، ويدرك أيضا أن حضارة الإسلام التي تأخرت في العصر العباسي الثاني قد ازدهرت وأينعت في مطلع عصر الخلافة في قرطبة، وقد حج الى عاصمة الناصر كل ذي علم وفن من المشرق، بل ومن المغرب أيضا، ومن "صقلية" التي هجرها العلماء منذ تهديد النورمنديين لها وبعد استيلائهم عليها، وقابل الناصر وابنه الحكم هذه الهجرة العلمية بترحاب كبير وإغداق لا نظير له وتقدير عظيم بل وكانوا يراسلون العلماء والأدباء ويستحثونهم على القدوم إلى الأندلس ويجلونهم أيما إجلال.

ويذكر التاريخ الحفاوة البالغة التي قوبل بها العالم البغدادي المعروف

بأبي علي القالي؛ فقد بلغ الحكم وكان في دست الوزارة وصول هذا اللغوي الكبير إلى "ألمرية" وكانت قاعدة أسطول "الناصر" فأرسل إلى قائد الأسطول "عبد الرحمن بن رماحس" أن يستقبل العالم الكبير بنفسه، وأن ينوب عنه في الترحيب به، وأن يصحبه إلى "قرطبة" مبجلا معظما، ولم يكتف بهذه الحفاوة البالغة بل أرسل له بعثة شرف من طليعة الأدباء لتسير في ركابه، ولتهوِّن عليه مشقة السفر حتى يصل إلى "قرطبة".

ولم تقتصر الهجرة إلى "قرطبة" على العلماء والشعراء والأدباء، ولكنها شملت أصحاب الحرف الممتازين من مهندسين وبنائين ومهرة الصناع والتجار من شرقيين وغربيين.



منظر داخلى للمسجد الجامع بقرطبة

وتقع قرطبة على نهر الوادي الكبير، وهو شريان الحياة في وادي الأندلس الخصيب، وموقعها جميل وتحوطها البساتين من كل جانب، وقد أنشأ الناصر بالقرب منها جنة فيحاء وضاحية سماها "الزهراء"، وقد اتخذها مقرا لملكه وبنى فيها من القصور ما يقصر الوصف عن تصويره. وكان قصره الخاص المعروف بـ "الروضة" آية من آيات الفن وتحفة من تحف الجمال، وقد سيق إليه الماء من أعلى الجبل بطريقة هندسية تشهد بما وصل إليه هذا العصر من عظمة وقدرة. وقد أجاد أحد الشعراء وصف قرطبة في قوله:

بأربـع فاقـت الأمصـار قرطبـة … منهن قنطـرة الـوادي، وجامعهـا
هـاتان اثنتـان "والزهـراء" ثالثـة … والعلـم أرفـع شـيء وهـو رابعهـا

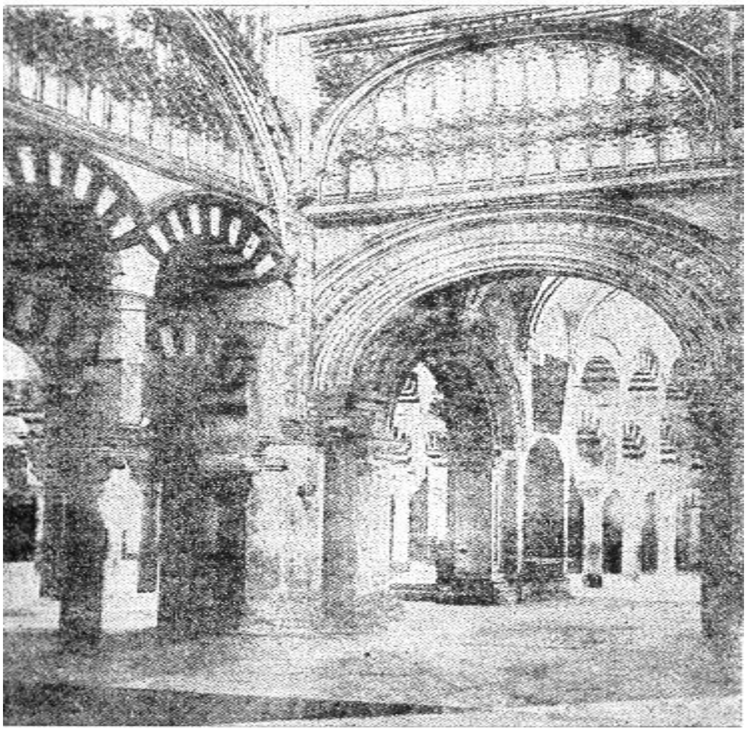
ويروي ابن خلدون ويطيل في وصف قرطبة ومبانيها، ويقرر أن عظمة البناء بدأت في عهد الداخل وزادت في عهد الأوسط الذي عم الرخاء في عهده فغرست المتنزهات والحدائق وأقيمت الجسور والقناطر وشيدت المدارس والجوامع، أما جامع قرطبة الذي جاء ذكره على لسان الشاعر السابق فقد بدأه الداخل ولكن الذي أتمه ابنه "هشام".

وتؤكد مصادر التاريخ ومن بينهما – ابن خلدون – أن مدينة قرطبة في عهد "الناصر" كانت تحوي ١١٣ ألف منزل، ويسكنها أكثر من نصف مليون نسمة، وكان بها ما يزيد على ثلاثة آلاف مسجد، وكان لها ثمان وعشرون ضاحية. وقد استقدم الناصر لبناء "الزهراء" مهندسين فنيين ممتازين من بغداد ومن القسطنطينية. وأقيمت وسط البساتين الشاسعة

مجالات للوحوش ومسارح للطير ودور صناعة بعضها لصنع آلات الحرب وبعضها للحرف الدقيقة مثل صياغة الذهب والفضة وأنواع الحلي الأخرى.

وأدخل الناصر على جامع "قرطبة" تحسينات عظيمة فبنى فيه مظلة كبيرة يستظل بها رواد هذا الجامع الكبير، وكانت تغطي صحن الجامع، كما أمر بصنع النافورات من المرمر، وبذلك أصبح جامع قرطبة من آيات الفن عظمة ودقة صناعة. وكانت الأشجار تملأ الشوارع وحول المساجد والبساتين وبخاصة أشجار الآس وأشجار البرتقال، ويكاد لا يخلو منزل من منازل الأثرياء في قرطبة من حديقة بديعة تحيط به تزينه.

وأقام الناصر على نهر الوادي الكبير القنطرة الكبرى التي كانت تزهو بها قرطبة وأنشأ بالمدينة دارًا لسك النقود يصنعها من الذهب والفضة وينشرها للتعامل دنانير ودراهم، وقد حلاها بوضع اسمه عليها مشفوعا بألقابه. وكان في حاشية الناصر الفقيه الورع الزاهد منذر بن سعيد البلوطي، وعظمت مكانته عنده وولاه القضاء، وكان هذا الفقيه التقي من الناصر في مكانة الشاعر "أبي العتاهية" من الرشيد، يذكره بأمر الدين كلما رآه أوغل في أمور الدنيا، ويخلص للناصر إخلاص "أبي العتاهية" للرشيد، وكان ابن سعيد يلوم الناصر لاقتنائه القباب المحلاة بالذهب والفضة مذكرا إياه بأن الدار الآخرة خير وأبقى، وكان يأخذ عليه صرف الأموال الطائلة في بناء القصور وتزيينها ، وبخاصة ضاحيته المفضلة "الزهراء"



منظر داخلي للمسجد الجامع بقرطبة

وكان ابن سعيد يجيد نظم القصائد ويحسن الارتجال، وكان الناصر يميل إلى هذا اللون من الأدب، فلما أسرف ابن سعيد في ذكر "الزهراء" وما كلفت الخليفة من مال، جاش الشعر في صدر الناصر فقال له:

همـــم الملـــوك إذا أرادوا نشـــرها   مـــن بعـــدهم فبألســـن البنيـــان

أو ما ترى الهرمين، قد بقيا وكم "ملك" محاه حوادث الأزمان

إن البنـــاء إذا تعـــاظم شـــأنه   أضحى يدل على عظيم الشأن

وأنشد أحد الشعراء الناصر قصيدة يمدحه بها، وكان ذلك في حضرة ابن سعيد فلما قال الشاعر:

سيشـهد مـا أبقيـت أنـك لم تكـن ضعيفا وقد مكنت للدين والدنيا
فبالجـامع المعمـور للعلـم والتقـى وبالزهرة "الزهراء" للملك والعليا

فرد عليه ابن سعيد مرتجلا:

يا باني "الزهـــــراء" مســـــتغرقا أوقاتـــــه فيهـــــا أمـــــا تمهـــــل
لله مــــــا أحســــــنها رونقـــــا لـــو لم تكـــن زهرتهـــا تـــذبل

والواقع هو أن ولع الناصر ببناء ما يخلد له الذكر كان أمرا طبيعيا فيمن كان مثله طموحا عالي الهمة موفور الهيبة، وكان الرخاء الذي عم شعبه في عهده مما يشجعه على ذلك، فقد راجت سوق التجارة وتحسنت وازدهرت الصناعة والزراعة وساد الأمن، فلماذا لا يكثر من المباني وينفق عن سعة في تجميل عاصمته وقد تكدست الأموال في خزائنه؟ وقد ذكر بعض الثقاة من المؤرخين أن خزانة بيت المال كانت تحوي في عهد الناصر ما يزيد على العشرين مليونا من الدنانير، وهو مبلغ ضخم بالنسبة لهذا العصر. ولامه ابن سعيد مرة، ولمح ثم صرح وذكره بأنه كثير الإغداق على من حوله فرد عليه الناصر بقوله:

مــــا كــــل شـــيء فقـــدت إلا عوضـــــني الله منـــــه شـــــيا
إني إذا منعــــــــت خــــــــيري تباعــــد الخــــير مــــن يــــديا
مــــن كــــان لي نعمـــة عليـــه فإنهـــــا نعمـــــة عليـــــا

* * *

جيش الناصر وأسطوله

من بين مؤرخي الأندلس الذين عنوا بوصف الحرب وما دار فيها

الأندلس وترتيب الجنود وإعدادهم لخوض المعارك، "أبو بكر محمد بن الوليد" المعروف بالطرطوشي في كتابه "سراج الملوك"، وفيه يقول تحت عنوان "صفة ترتيب الجيش عند اللقاء".

"فأما صفة اللقاء، وهو أحسن ترتيب رأيناه في بلادنا وهو أرجى تدبير نفعله في لقاء عدونا، أن نقدم الرجالة بالدروق الكاملة والرماح الطوال والمزاريق المسنونة النافذة فيصفوا صفوفهم ويركزوا مراكزهم، ورماحهم خلف ظهورهم في الأرض، وصدورهم مشرعة إلى عدوهم وهم جاثمون في الأرض وكل رجل منهم قد ألقم الأرض ركبته اليسرى وترسه قائم بين يديه، وخلفهم الرماة المختارون الذين تمرق سهامهم من الدروع، والخيل خلف الرماة، فإذا حملت الروم على المسلمين لم يتزحزح الرجّالة عن هيئتهم ولا يقوم رجل منهم على قدميه فإذا قرب العدو رشقهم الرماة بالنشاب والرجَّالة بالمزاريق وصدور الرماح تلقاهم أخذوا يمنة ويسرة، فتخرج خيل المسلمين بين الرماة والرجالة فتنال منهم ما شاء الله"

هذا هو وصف مواضع الجند عند اللقاء، ومنه يتبين اعتماد العرب في حربهم أكثر على الخيالة وكانت شهرة العرب بالفروسية تملأ أسماع العالم كله، وكان ممن يمثل هذه الفروسية في الأندلس "سعيد بن جودي" وكان يقود فرسان العرب ضد عمر بن حفصون، وكان ينشد الأشعار الملهبة للحماسة المثيرة للنخوة العربية كما كان يفعل العرب في أيام الجاهلية.

* * *

نظام الفروسية عربي، وانتشر في أوربا

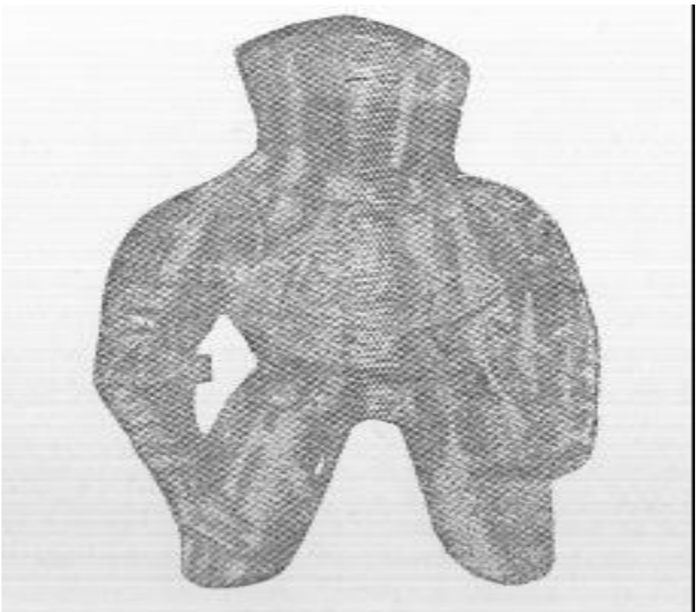
وعندما تقابل العرب بقيادة "عبد الرحمن الغافقي" مع الفرنجة بقيادة "شارل مارتل" ودارت رحى أكبر معركة تاريخية للعرب في أوربا، معركة "تور" كان العرب يقاتلون وهم على ظهور خيولهم، وكان الفرنجة يقاتلون رجّالة، وأعجب شارل بخيالة العرب وبسالتهم وفروسيتهم رغم انهزامهم في هذه المعركة، ففكر في استخدام الخيل في الحرب وكوّن بالفعل فرقة من المحاربين الفرسان وضمها لجيشه، وأعجب الأشراف بركوب الخيل فوجد نظام الفروسية الذي أخذ ينتشر في كل أنحاء أوروبا طوال حكم الإقطاع فيها.

وكان الفارس يلبس كما يلبس المحارب العربي، يلبس الدرع الذي يغطي كل جسمه ويقيه ضربة السيف وخوذة على رأسه ويحمل سيفه وترسه ورمحه ويمتطي صهوة جواده المختار ويتبعه تابعه الذي يقوم على خدمته الشخصية والذي يلازمه في غدوه ورواحه، ثم أخذت الفروسية تتطور حتى أصبحت نظاما معترفا به، ولها قوانينها وعهدها وآدابها فأصبحت نظاما حربيا واجتماعيا، وكانت النقطة المضيئة في ظلام العصور الوسطى في أوروبا؛ فقد كان من شيمة الفارس قول الصدق والدفاع عن المظلوم ونصرة الضعيف واحترام النساء وإغاثة الملهوف والتمسك بالفضيلة، وكل هذه الصفات كان يفتخر بها ويمارسها فرسان العرب بالفعل.

وأرادت الكنيسة أن تخضع هذه الفئة المحاربة لسلطانها وأن تستغلها في الدفاع عنها، وكانت الكنيسة في العصور الوسطى هي المسيطرة على

الشعوب الجاهلة وعلى الحكام الذين كانوا يخافونها ويتملقونها ويحاولون استجداء السلطة منها، ولهذا أدخلت الكنيسة في عهد الفرسان شروطا وعلى نظامهم أسلوبا دينيا يضمن خضوعهم لها وائتمارهم بأمرها، فاشترطت على كل فارس ناشئ أن يبيت الليلة التي سيمنح في غدها لقب فارس في الكنيسة واضعا سيفه على المذبح معاهدا ربه على أن يكون هذا السيف وقفا على نصرة الكنيسة قبل كل شيء.

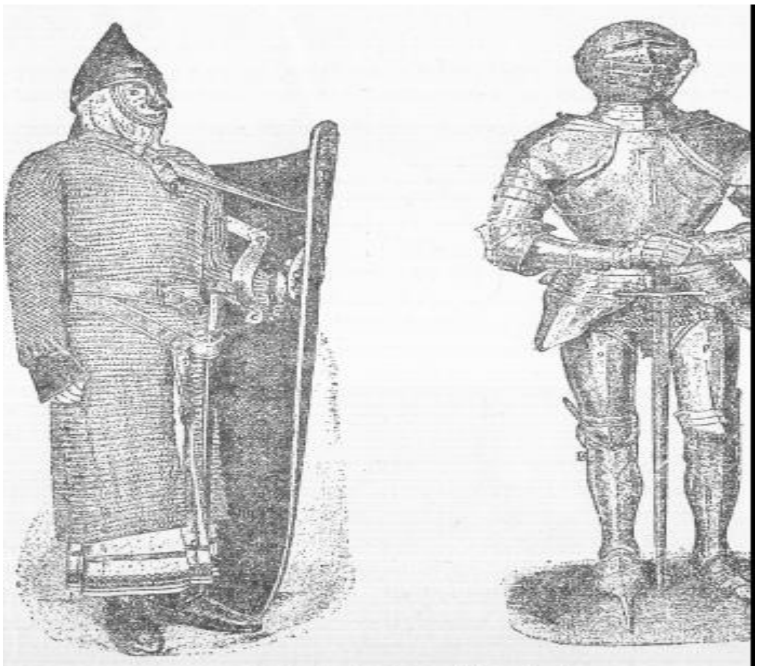
ولهذا كان الفرسان أول من لبى نداء البابا "أربان الثاني" في الحرب الصليبية الأولى، وكانت الحروب الصليبية مجالا رائعا لإظهار الفروسية من الجانبين، وكان لصلاح الدين في هذا الميدان ما جعله مضرب المثل حتى اليوم فقد ترك النساء والأطفال بعد فتحه لبيت المقدس فرصة أربعين يوما لإخلاء المدينة، وأظهر ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا من ضروب الفروسية ما أكسبه تقدير عدوه صلاح الدين وإعجابه، وكان آخر العهد بطائفة الفرسان الدينيين، طائفة "فرسان القديس يوحنا" الذين دافعوا عن جزيرتهم "مالطة" دفاع الأبطال أمام غزو نابليون للجزيرة واستيلائه عليها.



درع من الدروع التي يلبسها الفرسان العرب

وكان جيش الفتح الذي قاده طارق وموسى بن نصير من قبائل عربية متعددة أهمهم: الحميرية والعراقية والشامية، ومن قبائل من البربر من سكان شمال إفريقيا، وكان من أسباب هزيمة العرب في موقعة "تور" عدم الانسجام بين البربر والعرب، وقد قضى الداخل على النزعة الاستقلالية التي سرت بين هاتين الطائفتين، وظهرت نزعة استقلال أمراء العرب ابتداءً من حكم الحكم بن هشام بن الداخل الذي فكر في شراء المماليك وجعلهم نواة لجيش يعتمد عليه بصفة دائمة، وقد أنقذ هؤلاء المماليك حياته بالفعل حين حرض الفقهاء العامة عليه وكادوا بالفعل يظفرون به، وهو أول من اعتمد على الجند المرتزقة، وقيل أن حرسه الخاص كان يتألف من خمسة آلاف مملوك.

فلما ولي الملك عبد الرحمن الناصر اختمرت في ذهنه فكرة تكوين جيش دائم منظم، وقد كان جيش الأمير من قبله يتكون كما قلنا من جنود القبائل من عرب وبربر، وتحارب كل قبيلة تحت إمرة قائدها ولها رايتها الخاصة بها، وكان هذا الجيش لا تنظمه وحدة ولا تقوده قيادة موحدة اللهم إلا قيادة الأمير وإخلاص هذه القبائل له، وإلا حبها جميعا للجهاد في سبيل الله متى هدد البلاد الأجانب من النصارى. ولهذا نجح الناصر في تكوين جيش مستقل يخلص لشخصه وحده ويتقاضى منه رواتبه، وأضاف إليه جماعات من فتيان الصقالبة الموالي كان يجلبهم من وسط أوربا وشمال إسبانيا ويربيهم تربية عسكرية دينية لا يعرفون لهم أبا إلا الخليفة ويشبون على حبه وطاعته، وكان يعنى بتعليمهم عناية كبيرة ليفسح المجال أمامهم ويملأ بهم وظائف الإدارة وقيادة الجند، ولهذا أصبح لهذه الطائفة المستحدثة شأن عظيم في أيام الناصر والمستنصر، وقد حقد على هذه الطائفة أمراء العرب. ولكن قوة الناصر وهيبته لم تدع لمثل هذا التذمر مجالا، فلما ضعف خلفاء الأمويين ابتداءً من هشام الثاني استبد أمراء العرب والبربر والصقالبة كل يحكم حكما ذاتيا في مقاطعته أو في مدينته فكان هذا نهاية لخلافة بني أمية في الأندلس وبداية للحكم الذي ساد في ذلك الوقت والذي عرف بحكم ملوك الطوائف.



فرسان من العصور الوسطى فى اوربا

الناصر وأسطوله

ولم تكن عناية الناصر بالأسطول تقل عن عنايته بالجيش، فقد كانت سواحل شبه الجزيرة تطل على المحيط غربا وعلى البحر الأبيض شرقا، وكان وجود الأسطول أمرا ضروريا لحماية التجارة وحماية الثغور والاتصال بجزر البحر الأبيض مثل: صقلية وسردينا وجزر البليار التي كانت تابعة للأندلس والتي كان الناصر يستخدمها كنقط ارتكاز يخرج منها أسطوله في غزواته لبلاد المغرب والإغارة على ثغورها، أما قاعدة أسطول الناصر فكانت ميناء "ألمرية" الواقعة على الساحل الجنوبي الشرقي للجزيرة، وكانت من المدن الكبيرة العامرة بالسكان الغاصة بالحدائق والبساتين، وقد اشتهرت

بعدة صناعات أهمها: صناعة المعادن وسبكها وصنع الزجاج والحرير والديباج، ويقول بعض المؤرخين أنه كان يوجد في "ألمرية" في عهد الناصر ما يزيد على ألف حمام وفندق.

وعلى رأس الأسطول "أمير البحر" وقائده الأعلى "عبد الرحمن بن رماحس"، وهو الذي انتدبه الحكم الثاني بن الناصر ليستقبل العالم "أبي علي القالي" ويصحبه إلى قرطبة، وكان أسطول الدولة الفاطمية في المغرب أولا وفي مصر ثانيا عظيم العدد والعدد وله السيطرة الكاملة على شرق البحر الأبيض وكانت مراكبه الحربية ترابط في موانيء مصر (الإسكندرية، ودمياط) وفي موانيء الشام مثل (عكا وصور)، وقد استطاع الفاطميون بأسطولهم الاستيلاء على صقلية، وكان يحكمها في عهد الناصر "المعز لدين الله أبو تميم معد العبيدي"، وكان له أسطول خاص يحمي شواطئ الجزيرة، وكان احتكاك أسطول الناصر بالأسطول الفاطمي أمرا لا بد منه للتنافس الشديد القائم بين الدولتين، ولكن الحوادث أثبتت تفوق أسطول الأندلس، وبخاصة في غرب البحر الأبيض؛ فقد سيّر الناصر أسطولا تحت قيادة وزيره أحمد بن عبد الملك بن شهيد؛ فأغار على وهران وكاد يفتح "تونس" لولا ما قدمه الأهالي له من ثمين الهدايا.

وكان أسطول الناصر يتكون كباقي الأساطيل العربية من عدد مختلف من المراكب منها:

- الشواني: وهي أهم القطع التي يتكون منها الأسطول، وهي سفن حربية كبيرة ذات أبراج وقلاع، تحمل من الجنود ما بين ١٥٠ –

٢٠٠ جنديا وتجهز بالسلاح والنفطية وتستخدم في الدفاع والهجوم.

- الحراريق، أو الحراقات: وهي أقل حجما من الشواني ولكنها محملة بالآلات النارية والقاذفة. وكانت هذه الأجهزة أشبه بالمدافع ولكنها تقذف نفطاً ملتهباً وناراً (استخدم العرب بعد الإغريق النار الإغريقية في حرب البحر)، وكانت هذه النار تشتعل في الهواء وفي الماء على السواء. وثبت أن العرب قد استعملوا البارود في أوائل القرن العاشر الميلادي وأن أوربا لم تستعمله إلا في القرن الرابع عشر الميلادي.
- الطرائد أو الطرادات: وهي أصغر من الحراقات حجما، ولكنها سريعة الحركة وتحمل الخيل للجنود بحيث تسعفهم إذا نزلوا الى البر بما يحتاجونه من الخيل للحرب وكانت الواحدة منها تحمل ما بين أربعين وثمانين فرسا.

وبجانب هذه القطع الأصلية كانت توجد السفن الكبيرة المحملة بالعتاد والمؤونة، وكانت تسمى بالمسطحات أو البوارج. وكان من الشعراء المعاصرين في الأندلس الشاعر الكبير "أبو القاسم محمد بن هانئ" الذي أبدع في وصف أسطول المعز لدين الله الفاطمي إذ يقول:

أما الجواري المنشئات التي سرت	لقد ظاهرتها عدة وعديد
قباب كما ترخي القباب على ألمها	ولكن من ضمت عليه أسود
عليها غمام مكفهر صبيره [1]	له بارقات جمة ورعود
أنافت بها أعلامها وسماها	بناء على غير العراء مشيد

(١) الصبير: السحاب الأبيض.

من الراسيات الشم لولا انتقالها فمنهـا قنــان [٢] شمــخ وريــود [٣]
مــن الطــير إلا إنهــن جــوارح فلـيس لهـا إلا النفـوس مصـيد
من القادحات النار تضرم للصلى فلـيس لهـا يـوم اللقـاء خمـود
إذا زفـرت غيظـا ترامـت بمـارج كما شب من نار الجحيم وقود
فـأفواههن الحاميــات صــواعق وأنفاســهن الزافــرات حديــد [٤]
لهـا شـعل فـوق الغمـار [٥] كأنهـا دمــاء تلقتهــا ملاحــف ســود
فلــيس لهــا إلا الــرياح أعنــة وليس لها إلا الحباب [٦] كديد [٧]

---

(٢) جمع قنة: أعلى الجبل .

(٣) جمع ريد: الحرف الناتئ من الجبل .

(٤) كان يطلق من بعض المراكب كرات من الحديد في حجم البندق.

(٥) الغمار: جمع غمر: الماء الكثير.

(٦) الحباب: جمع حبة وهو بالفتح "حباب الماء" نفاخاته التي تعلوه – بعاليله.

(٧) الكديد: تراب حلبة الخيل

العصر الذهبي
عصر الناصر – المستنصر
من ٣٠٠ – ٣٦٦ هـ : ٩١٢ – ٩٧٦ م

١- حياة الفكر والأدب

١- الفلسفة والدين

في عصر ما قبل الخلافة تركنا "ابن مسرة" منزويا في صومعته بجبل قرطبة معتزلا الناس، اللهم إلا نفرا من تلاميذه المقربين يتلو عليهم ما حمله من علوم الشرق ويعيش هو وتلاميذه عيشة الزهاد المتصوفين، وانقسم الناس في الحكم عليهم فمنهم من وصفهم بالورع والتقى، ومنهم من وصفهم بالمروق والزندقة.. ووصلت كتب هذه الجماعة إلى الشرق فوجدت فيه كما وجدت في الأندلس مؤيدين ومعارضين. ويبدو أن "ابن مسرة" كان متأثراً بالفلسفة الشرقية الإسلامية، وهي الفلسفة التي تأثرت بدورها بما كتبه "أفلوطين" وهي التي عرفت بالأفلاطونية الحديثة، وعليه يبدو أن آراء ابن مسرة ومدرسته من بعده كانت مزيجا من آراء المعتزلة والباطنية والأفلاطونية الحديثة، وامتزاج الفلسفة بالدين عند فلاسفة المسلمين كان أمراً طبيعياً كما قلنا في الفصل السابق الذي تحدثنا فيه عن نشأة الآراء الفلسفية في بلاد الأندلس.

وكانت مشكلات الفلسفة – منذ وجدت في الشرق أو في اليونان – مسائل ذات صلة وثيقة بالعقائد الدينية، وكان الخلاف بين الفلسفة

والدين هو خلاف في تعليل أو تفسير الظواهر والوصول إلى حل لهذه المشكلات، وهذه المشكلات لا تعدو النظر في هذا الكون، وهل هو حادث أو أزلي. وهل هو حادث من عدم؟ وما مصيره؟.. أهو فان أم باق إلى الأبد؟ وهل وجد بصنع صانع؟ ثم هذه الكائنات وهذا الإنسان أهو جسم بحت وتركيب إلهي، أم هو جسم وروح؟ وهل الروح هي العقل أم هي شيء آخر غيره؟ وهل هذه الروح جوهر مجرد؟ وما علاقتها بالجسم؟ وهل هي مفطورة على الخير أم الشر؟ وهل ميلها إلى الشر مكتسب؟ وهل اتصالها بالجسد وخضوعها لمطالبه المادية الدنيا قد أعتم شفافيتها وأبعدها عن الاتصال بالروح العليا، والعقل الأول، وهو الله؟.. وإذا فني الجسم فهل تعود إليه الروح مرة ثانية؟ وهل يشارك الجسم الروح في الثواب والعقاب؟ وما مناط هذا الثواب وهذا العقاب؟ وهل أعمال الإنسان من فعله ويأتيها بمحض إرادته؟ أم هي تنفيذ لإرادة الله، ولا يمكن إلا أن يأتيها تنفيذا لهذه الإرادة؟ وما وظيفة الدين في حياة الناس؟ وما وظيفة الرسالة والإمامة من بعدها؟. وفي من يجب أن تظل الخلافة؟

وتجيب الأديان على كل هذه الأسئلة وتحاول حل هذه المشكلات عن طريق الوحي أو التنزيل والتسليم بهذا الوحي والإيمان بهذا التنزيل، ولكنه حل يعتمد أكثر على الإلهام والإيمان بقدرة الله التي لا حد لها، وبرحمته وعدله يرحم ويثيب من يشاء ويعذب من يشاء من عباده ممن يعصون أوامره ولا يجتنبون نواهيه، يفعل ما يريد ولا يُسأل عما يفعل، وهو القاهر فوق عباده، أعد للصالحين جنة ونعيما وللكافرين عذابا وجحيما، والكل إليه راجعون.

ولكن المفكرين من علماء الإسلام قتلوا هذه المسائل بحثا وتمحيصا مستندين مرة إلى ما جاء في الوقت نفسه بآراء من سبقهم من الحكماء والفلاسفة، وقد أبلوا في هذا بلاء حسنا وأتوا في تفسيرهم وبحثهم في هذه المسائل بالعجب العجاب، وكان أظهر فلاسفة الشرق الإسلامي الأستاذ الفارابي الذي كان يجمع بين صدق العقيدة الدينية وعمق الفكرة الفلسفية وقوة المنطق والحجة، ولكنه كان متأثراً في الوقت نفسه بآراء "أرسطو" المعلم الأول، وبآراء "أفلوطين" إمام الأفلوطينية الحديثة..

وقد عاش أفلوطين في صعيد مصر وفي الإسكندرية خلال القرن الثالث المسيحي ونشر مذهبه أتباعه من بعده، وكان أبرزهم "فرفريوس"، و"الإسكندر الأفروديسي"، والأول لخص مذهب أفلوطين في الكتاب المسمى بـ "التاسوعات"، كما ألف كتاب "إيساغوجي" في المنطق. أما الثاني فقد ألف كتابا عرفه فلاسفة المسلمين باسم "التأويلوجيا" وهو موجز للتاسوعات الثلاث الأخيرة. وقد اعتنق مذهب أفلوطين كثير من مفكري الأديان الثلاثة: اليهودية، والمسيحية، والإسلام.

وقد وجد فيه هؤلاء المفكرون ما يتفق مع تعاليم الأديان مثل قوله: "إن الله سبحانه وتعالى هو الواحد الأحد المنزه عن الشبيه والمثال، وأن أرواح البشر قبس من روحه، وأن الإنسان يصل إلى المعرفة والحظوة والقرب من الله عن طريق التخلص من مطالب الجسد وشهواته، وهي مصدر الشر، وبذلك ينتقل الإنسان من مرتبة الإحساس وهي مرتبة مادية إلى مرتبة التأمل وهي مرتبة روحية"

وقد تأثر الفارابي بهذه الآراء فتراه يطلق على الله – جلت قدرته – اسم العقل الأول، وعلى العقل الفعال اسم الروح الأمين، وكان يطلق على الملائكة اسم العقول، وعلى الأفلاك التي يعيش فيها الملائكة اسم الملأ الأعلى، كما قال أن صفات الله الأزلية هي المثل العليا.

وعاصر الفارابي أئمة علماء الكلام "المناطقة" مثل أبي الحسن الأشعري في العراق، والطحاوي في مصر، والخلاصة هي أن القرن الثالث الهجري – وهو العصر السابق على حكم الناصر – كان عصرا فلسفيا بكل ما تحمله وتعنيه كلمة فلسفة، وكان المعتزلة مناطقة، ومن قولهم: "إن الله خلق الإنسان، وخلق له الاختيار"، وهم لا يجيزون الرؤيا بالنسبة لله لأن العين لا ترى إلا محسوسا، وهذا غير جائز في حق الله الذي لا يشبهه شيء..

وظهرت أيضاً "الباطنية" وانتشرت في شمال إفريقيا واستغلها أكبر استغلال الفاطميون، وأخذت فكرة الباطنية تتسلل إلى الأندلس، وكان الناصر يخشى انتشارها لأنها أصبحت تنظيما سياسياً وفكرة دينية في وقت واحد، فهي تدعو إلى الإمامة والملك، وأن الخلافة لا يمكن أن تكون إلا في سلالة علي وفاطمة، ولعل هذا من الأسباب التي جعلت الناصر لا يشجع الفلسفة في عصره إلا بالقدر الذي يسمح به التطور التفكيري الديني، ولكن ابنه المستنصر كان فيلسوفا بالفعل، وكان من أنصار حرية الفكر، ولهذا أخذت بذرة الفلسفة تضرب في أرض الأندلس في عصره وأخذت جذورها تمتد وتشتد، وقد استوت بعد ذلك على سوقها وأثمرت

في هذه البلاد ثمرة جنية بزت ما حققه الفلسفة في بلاد الشرق..

وقد تأثرت أوروبا فكريا بآراء فلاسفة الأندلس، وكان انتشار هذه الآراء الفلسفية في أوربا ابتداءً من القرن الخامس عشر عاملاً مهماً من عوامل قيام النهضة الأوربية والإصلاح الديني الذي صحب هذه النهضة، وكان مظهراً من مظاهرها المتعددة.

لم تكن سوق الفلسفة إذن رائجة في عهد الناصر، فقد كانت لرجال الدين هيبة ومكانة، ولكن التطور الفكري لم يتجمد ولم يتوقف، ووجدت الآراء الفلسفية الحرة ونشرها بعض الفقهاء المستنيرين ممن ولاهم الناصر كبرى المناصب فحرروا العقائد من قيود التقليد والوقوف عند النص، وتكلموا في موضوعات فلسفية بحتة ولكن تحت ستار البحث الديني المتحرر، ومن أبرز هذه الطائفة التي وجدت في نطاق محدود في عهد الناصر ثم اتسعت دائرتها اتساعا كبيرا جدا في عهد ابنه المستنصر.

* * *

منذر بن سعيد بن عبد الله بن عبد الرحمن البلوطي

٢٧٢ – ٣٥٥ هـ : ٨٨٦ – ٩٦٦م

وقد نشأ في الأندلس ثم رحل إلى الشرق وأخذ عن علماء المشرق مذهب النظر والاحتكام إلى العقل واستخدم القياس والمنطق، ورغم كراهية العلماء المالكيين له فقد تدرج في المناصب وسمح له بتولي القضاء في طرطوشة، وكان عالما متمكنا وأديبا ناقدا وشاعرا يقول الشعر على البداهة

وينظمه في الزهادة والحض على الفضيلة، ولم ينسج على منوال شعراء عصره الذين كان أكثر شعرهم في الوصف والغزل.

وسنحت له فرصة ثمينة لفتت نظر الناصر إليه وإلى علمه وأدبه، وقد أخبرنا إلى موقفه المشرف الدال على حضور ذهنه وسرعة بديهته وتمكنه من ناصية الحديث والخطاب حينما كان حاضرا يوم جاءت سفارة بيزنطة، وحفل ديوان الناصر بالأمراء والقواد والعلماء والأدباء، وأشار الحكم بن الناصر إلى العالم البغدادي "أبي علي القالي" ليخطب بما يناسب المقام فارتج عليه وأسرع ابن سعيد لإنقاذ الموقف ببراعة وقوة وتدفقت المعاني والألفاظ ثناءً على الناصر وعصره وعلو همته وشأنه، وقد ذكرنا نبذة من خطابه هذا، ونحن نقدم معرفين بالناصر في أول الكلام عنه.

ومنذ هذه اللحظة علا نجم هذا الفقيه العالم ولمع في بلاط الناصر، وقد رقاه في المناصب فولاه الصلاة والخطابة في المسجد الجامع بالزهراء، ولما توفي محمد بن عيسى القاضي ولاه قضاء الجماعة بقرطبة وأقره على الصلاة بالزهراء، وكان الناصر يسمع له ويجله ويحترم فيه زهده وتقاه وكان يستشيره في أموره ويقدر استشارته وينصت لنصيحته، وكانت مكانته من الناصر مثل مكانة الشاعر الورع أبي العتاهية من الرشيد يذكره وهو في غمرة السلطان وعظمة الحكم وأبهة الملك بتقوى الله والعمل على مرضاته، وقد ذكرنا له بضعة أبيات رد بها على من أسرف في وصف الزهراء وجمالها وزخرفها. وله أشعار في الزهد لها قيمتها مثل قوله:

المـــوت حـــوض وكلنـــا نـــرد　　　لم يـــنج ممـــا يخافـــه أحـــد

فـلا تكـن مغرمـا بـرزق غـد　　　فلسـت تـدري بمـا يجـيء غـد
وخـذ مـن الـدهر مـا أتاك بـه　　　ويسـلم الـروح منـك والجسـد
والخـير والشـر لا تدعـه فمـا　　　في النـاس إلا التشـنيع والحسـد

ويقول – رحمه الله – في الموعظة والزجر:

كم تصابيت وقد علاك المشيب　　　وتعاميـت عمـدا وأنـت اللبيـب
كيـف تلهـو وقـد أتاك نـذير　　　أن سـيأتي الحمـام منـك قريـب
يا سفيها قد حان منك الرحيل　　　بعـد ذاك الرحيـل، يـوم عصيب
إن للمـوت سـكرة فارتقبهـا　　　لا يـداويك إن أتتـك، طبيـب

ويقول في ختامها:

لـيس مـن سـاعة الـدهر إلا　　　للمنـايا عليـك فيهـا، رقيـب

وكان منذر إذا جلس للقضاء قضى بمذهب مالك الذي كانت تقره الدولة وتقضي به، ولكنه إذا جلس لتلاميذه أفصح عما في نفسه من ميل للتحرر، حتى لقد قيل عنه وهو يدرس الحديث أنه لم يكن يهتم كثيرا كما كان يفعل باقي الفقهاء بالسند أو المتن، والسند هنا معناه الثقة في الرواية وتسلسلها، والمقصود بالمتن أي نص الحديث ولفظه، ولكنه كان يعنى بالمعنى ويسترسل فيما يقصده الرسول من حديثه الشريف.

وقد كان منذر من المؤيدين لابن مسرة في معظم آرائه، ونحن نعلم أن ابن مسرة كان يميل إلى الاعتزال، وكان يقول بقولهم في خلق الإنسان لأفعاله، وزاد فقال بأن العذاب في الآخرة ليس عذاباً، وأن ما جاء في وصف هذا العذاب في القرآن تصوير مقرب لعقول الناس. ودعا بدعوة ابن مسرة من بعده غير منذر بن سعيد، إسماعيل بن عبد الله الرعيني، وكان

هو وأفراد عائلته من أتباع "ابن مسرة" حتى لقد وصفت له ابنة باسم "المتكلمة"، وكانت للرعيني أقوال وآراء تعتبر سابقة لأوانها فلعله أول من قال من علماء المسلمين بعدم شرعية الملكية من أي نوع، وكان يجيز "نكاح المتعة"!.

ونكتفي بهذا القدر من ترجمة منذر بن سعيد، للتدليل على الاتجاه الديني نحو الفلسفة في عصر الناصر الذي كان أكثر تحفظا في مناصرة الآراء الحرة من ابنه الحكم الثاني المتحرر بالفعل والذي يشبه المأمون العباسي في شغفه بالعلم ونبوغه فيه وفي عمله المتواصل لجمع الكتب وتبويبها وترجمتها وتشجيع العلماء والمؤلفين في مختلف العلوم، وسنأتي على ذكر ذلك تفصيلا ونحن نتكلم عن النهضة العلمية في الأندلس في عهد الناصر والمستنصر بالله.

* * *

الحياة الأدبية

استكملت النهضة الأدبية في العصر الذهبي للأندلس "عصر الناصر، والمستنصر بالله" كل مقوماتها وتهيأت لها كل الظروف المواتية لتنمو وتزدهر وتقوم على أسس سليمة قوية، وقد تكلمنا بإيجاز عن فجر هذه النهضة الأدبية في العصر السابق على عصر الخلافة، وكيف بدأ المجتمع الأندلسي يعنى بالأدب والفن ابتداءً من عصر الداخل الذي استطاع أن ينشر الأمن في ربوع مملكته، وأن يشجع هو ومن خلفه حركة العلم "الديني" والأدب وبخاصة الشعر.

وفي هذه الحقبة من تاريخ الأندلس بدأ الأهالي ممن حذقوا اللغة العربية ودرسوا فنونها وآدابها ينتجون بعد أن اندمجوا في الثقافة الإسلامية، وظهر الميل للشعر والغناء ولتذوق الفنون، وابتدعت الموشحات، وظهر لأول مرة فن الزجل، وتطور المجتمع تطورا ملموسا كما قلنا في عهد عبد الرحمن الأوسط بعد المحاولة الناجحة التي قام بها "زرياب"، وبدأ الشعب يحيا حياة ناعمة مترفة، وقد أرهف حسه وارتفع مستوى تذوقه للفن.

أما في عصر "الناصر"، وابنه الحكم الثاني "المستنصر بالله" فقد وجدت عوامل جديدة دفعت بهذه النهضة الأدبية دفعة قوية جداً إلى الأمام؛ فقد ساد في عصرهما الاستقرار السياسي في الداخل والهيبة والعظمة في الخارج، ونظمت اقتصاديات البلاد تنظيما مثمراً وفر للشعب الرخاء وزادت موارد البلاد، وتزدهر الحياة الأدبية دائما عندما يتوفر الرخاء وينعم بال الشعب وتزداد رفاهيته. وبدأت حركة جمع الكتب في القصر الملكي وفي بيوت الأمراء، وأقبل الشعب على نسخ هذه الكتب والعمل على نشرها وتكونت المكتبات وملئت بالمخطوطات وحملت الكتب من الشرق وفيها كنوز العلم والأدب..

ورحب الناصر وابنه بالعلماء والأدباء وحثوهم على الحضور للأندلس، وبالغوا في إكرامهم وأفسحوا لهم المجال لنشر دراساتهم؛ فوفد على الأندلس عدد كبير جدا من علماء مصر والشام والعراق والمغرب. وبدأت في هذا العهد رحلات علمية مستمرة من طلاب العلم في الأندلس يشدون رحالهم على منابع العلم والأدب في الحجاز والشام ومصر وبغداد

ينهلون من هذه الحياض المتدفقة بالمعرفة ثم يعودون إلى بلادهم لينشروا بها ما تعلموه وما حفظوه، وقد وجدوا من التشجيع والتقدير ما حفزهم على تحمل مشقة السفر طلبا للعلم والاستزادة منه، وبهذه الطريقة نقلت حضارة الشرق ومدنيته وعلومه وآدابه إلى وادي الأندلس الخصيب اليانع الذي وصل بعد ذلك إلى القمة والذي أخذت علومه بعد ذلك تدرس في الشرق وتنقل إليه.. وهكذا يعيد التاريخ نفسه ويستمر التبادل الثقافي بين الشرق والغرب.

وفن الأدب عند العرب فن قديم يتصل بعواطفهم ووجداهم فهو تعبير عما يجيش في خواطرهم من معان وأحاسيس، ثم حاولوا بعد ذلك أن يصوغوا هذه المعاني في عبارات ذات جمال من حيث لفظها وأسلوبها، ولكن عرب الأندلس ومستعربيه توسعوا في معنى الفن الأدبي، فلم يعد في نظرهم قاصرا على النشر والنظم والخطابة، ولكنه شمل بعض العلوم الإنسانية ذات الصلة الوثيقة بالحياة، مثل الأخلاق وأدب الحديث وتاريخ الأدب والتاريخ بأنواعه، بل وجعلوا الملح والنوادر بعض هذا الفن فكأنهم أرادوا أن يميزوا بين الأدب والعلم، وكان هذا بالفعل اتجاههم في التفرقة بين الحقائق العلمية القائمة على الدليل العلمي والتجربة والتي لا علاقة لها البتة بمشاعر الإنسان وانفعالاته أو سلوكه، وبين الحقائق الأدبية ومحصول اللغة من نظم ونثر وقصص وتاريخ خاص وعام، ولعل أصدق ما يصور لنا هذا الاتجاه في هذا العصر الكتاب الذي ألفه الأديب الشاعر الناثر ابن عبد ربه والذي سماه "العقد الفريد".

ابن عبد ربه

٢٤٦ – ٣٢٨ هـ : ٨٦٠ – ٩٤٠ م

هو أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه مولى بني أمية، وكتابه "العقد الفريد" يعتبر من أقدم الكتب التي ألفت في الأندلس، وهو صورة صادقة لما كانت عليه ثقافة الأندلس في عصره، كما يوضح لنا فن الأدب ومفهومه، وما يجب أن تكون عليه حياة الأديب أو المواطن المثقف، وقد نظم المؤلف "عقده الفريد" نظم الجواهري الحاذق لعقد ثمين كون حباته من خالص الجواهر، واختار ابن عبد ربه لكل باب من أبواب كتابه اسم جوهرة معروفة من الجواهر، فهذا باب الياقوتة، وهذا باب الزبرجدة، وهذا باب الزمردة، وهكذا. أما محتويات هذا الكتاب "الفريد" فعلا في نوعه، فمجموعة غريبة من فنون الأدب وعلومه، إنه يعالج كل الموضوعات التي يعنى بها المجتمع الراقي مبتدئا بعلم السياسة وعلاقة الحاكم بالمحكوم، وما يجب أن يتصف به السلطان العادل من صفات، ومنتهيا بالملح والنوادر الأدبية، بل وبالأحاجي والألغاز.

أما ما دونه بين النهايتين السابقتين فيدل على علم غزير وحفظ للرواية واطلاع واسع ومعرفة بالأخبار وإتقان لفن الكتابة مع حسن التبويب والتعليق والصدق، وإن كان ميله لبني أمية وهو يؤرخ لهم في الشام والأندلس ظاهرا في كتاباته عنهم وتقصيه ما حدث في عهودهم، ولم يستغرب ذلك منه وهو مولى من مواليهم، وشاعر في بلاطهم، وعاش حياته كلها معهم وفي كنفهم.

كتاب "العقد الفريد" فيه – كما قلنا – أدب وسياسة وتاريخ، وفيه

قواعد للأخلاق، بل وللتربية، وفيه مقاييس دقيقة للفضائل، وبخاصة فضيلتي الكرم والحلم، وهما بالفعل من أمهات الفضائل ان لم يكونا أعلاها وأسماها. وقد جمع فيه بين علوم الدين والدنيا، جمع فيه تفسيراً وحديثاً وفقها دينياً كما جمع فيه في الوقت نفسه شعراء وغناء وأوصافا للنساء ومكرهن وقلوبهن المتقلبة وانفعالاتهن المتغيرة.

والحقيقة هي أن هذا المؤلف قد أودع كتابه هذا كل معرفته وكل ما أفنى فيه العمر تحصيلا وبحثا، فهو فيه مؤرخ ومحلل وناقد وصاحب رسالة دينية وخلقية وباحث اجتماعي ونصير للمثل العليا، فإذا سلمنا بقول بعض المؤرخين بأنه كان أسبق من نظم الموشحة أدركنا ما كان لهذا الشاعر من تذوق فني وولع بالغناء البريء والغزل العفيف. وقد ألف ديوانا في الشعر سماه "الممحصات" ولكنه لم يحصل في ميدان الشعر على شهرة واسعة، ولعل ذلك راجع إلى قصره الشعر على مدح أمراء وحكام بني أمية، فهو شاعر بلاط، وليس بشاعر شعبي.

والظاهرة الغريبة في ديوانه هي أنه يقول الشعر في الغزل ثم يتبع ما يقوله في هذا الباب بشعر في الزهادة كأنه يخشى أن يجرفه تيار الدنيا فيذكر نفسه بنفسه بالآخرة ليحتفظ بالنزعتين معا فيذكر الدار الباقية ولا ينسى نصيبه من الدنيا، وقد خص الناصر بقصائده المطولة يصف فيها غزوات الناصر ونصر الله له على أعدائه، ولعل مقطعاته خير من مطولاته، ولا نستطيع أن نقول أنه كان يمثل الشعر في عصر الناصر، ولكنه كان يمثل الحياة الأدبية في هذا العصر تمثيلا صحيحا.

نماذج من شعر ابن عبد ربه

قال يمدح المنذر بن محمد:

بالمنـــــذر بـــــن محمـــــد شـــرقت بـــلاد الأنـــدلس
فـــــالطير فيهـــــا ســـــاكن والـــوحش فيهـــا قـــد أنـــس

ومن قوله في الغزل:

مـا أن رأيـت ولا سمعـت بمثلـه درا يعـود مـن الحيـاء عقيقـا
وإذا نظـرت إلى محاسـن وجهـه أبصـرت وجهـك في سـناه غريقـا

ويصف النرجس فيقول:

قـد بعثنـا إليـك بالنـرجس الـغ ض حكـي لـون عاشـق معمـود
فيـه ريـح الحبيـب عنـد التلاقـي واصـفرار المحـب عنـد الصـدود

* * *

الشعر في عصر الناصر

ابن هانئ الأشبيلي

٣٢٦ – ٣٦٢ هـ : ٠٠٠ ٩٧٢ م

ويمثل دولة الشعر في هذا العصر الذهبي، الشاعر المعروف محمد بن هانئ، وكنيته أبو القاسم، وأبوه هانئ الأزدي، وهو من شعراء الطبقة الأولى، وقد عاصر المتنبي، ويطيب لبعض النقاد أن يطلقوا عليه "متنبي الغرب"، وسنحاول ونحن نحلل بعض أشعاره أن نوازن بين هذه الأشعار وبين شعر المتنبي لنرى إلى أي حد أصاب من نعته بهذا النعت

وإلى أي حد جافاهم الصواب في حكمهم هذا.

نشأ ابن هانئ في مدينة "أشبيلية" وهي من أكبر مدن الأندلس، وقد درس الأدب بمفهومه الذي تحدثنا عنه، وحفظ الكثير من شعر العرب القدامى منهم والمحدثين، وظهرت موهبته الشعرية في سن مبكرة، وكان عالما فيلسوفا ذا مكانة مرموقة عند حاكم المدينة، ولكن ما عرف عنه من ميل للفلسفة جعل صاحب أشبيلية ينصحه بالنزوح عنها؛ فقد كان كل مشتغل الفلسفة في نظر المتعصبين من الفقهاء زنديقا، وخشي الحاكم أن يتهم بذلك لعطفه عليه وتقريبه منه، ونزل ابن هانئ على إرادة صديقه الحاكم وترك الأندلس جملة ويمم وجهه شطر بلاد المغرب، وكان عمره في ذلك الوقت سبعة وعشرين عاما.

ووفق في مدح "جوهر الصقلي" قائد المعز لدين الله الفاطمي، فأكرمه وأغدق عليه، ونمى خبره إلى المعز فأحسن وفادته وأجزل له العطاء وأراد أن يتخذه صناجة لملكه، كما كان يفعل سيف الدولة بن حمدان مع "المتنبي"، واستقر المعز لدين الله الفاطمي في عاصمة ملكه الجديدة "القاهرة".. وأراد ابن هانئ أن يعيش باقي عمره في بلاطه وأن يظل شاعره المفضل، ولكن القدر لم يحقق له أمنيته هذه فتوفي في مدينة "برقة" في ظروف غامضة، وقال المعز يوم علم بما حل به "هذا رجل كنا نود أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يتح لنا ذلك".

ويمثل ابن هانئ مجتمع الأندلس واتجاهاته تمثيلا صادقا لدرجة كبيرة؛ فهو من ناحية الشكل في الشعر يترسم خطى القدامى فيحفظ الوزن

والقافية فيتبعهما، وإن كان في بعض قصائده القليلة قد خرج عن المألوف من البحور والأوزان، شأنه في ذلك شأن أبي نواس، أما من حيث المعنى فكان يحاول أن يتشبه بالمتنبي في الغوص والبحث عن المعنى العميق محاولا صوغه في قالب لغوي جزل فخم، وفي أخيلة وتشبيهات لا يفهمها القارئ إلا بعد تفكير وتدبر، كان يحمل المعنى البسيط فوق ما يجب أن يتحمله، ولهذا ظهرت في شعره الصنعة..

ويشترك الشاعران المشرقي والمغربي في الطموح ومحاولة تحقيق الأماني بمدح الحكام والملوك، ولكن طموح أبي الطيب كان بعيد المنال فقد كان يطمع أن يكون من طبقة الحكام وكانت همته العالية واعتداده بنفسه تدفعه إلى مثل هذا دفعا يظهر في إكثاره في شعره من التحدث عن نفسه وتعديد مناقبه واعتباره دولة الشعر أسمى مكانة من دولة الحكم، وقد كان تعالي المتنبي سببا في شقائه وقطع صلته بسيف الدولة.

وكلاهما يجيد الوصف إجادة فائقة، وقد ضربنا لذلك من شعر ابن هانئ مثلا أوردناه ونحن نتحدث عن أسطول المعز وصفه لمراكب هذا الأسطول من أبدع ما قاله ابن هانئ في الوصف. أما المتنبي الذي كان يخوض المعارك جنبا إلى جنب مع سيف الدولة فيصف لنا هذه المعارك وصفا لا يسمو عليه وصف. وقد وصف المتنبي جواده وصفا لا يقدر عليه إلا هو. فمن قوله:

وليـــل كيـــوم المـــدنفين[1] كمنتـــه[2] أراقــب فيــه الشــمس أيان تغــرب

([1]) المدنفين: المصابين بالمرض

وعيني إلى أذني أغر[3] كأنه ... من الليل باق بين عينيه كوكب

له فضلة [4] من جسمه في أهابه [5] ... تجيء على صدر رحيب وتذهب

شققت به الظلماء أدني[6] عنانه ... فيطغى[7] وأرخيه[8] مرارا فيلعب

وأصرع أي الوحش قفيته[9] به ... وأنزل عنه مثله حين أركب[10]

وما الخيل إلا كالصديق قليلة ... وإن كثرت في عين من لا يجرب[11]

إذا لم تشاهد غير حسن[12] شياتها ... وأعضائها فالحسن عنك مغيب[13]

فهذا ابن هانئ يرى الأسطول فيبهره بمراكبه الضخمة التي ترمي العدو بالنار وقذائف الموت فيصفها وصفا دقيقا في عبارات فخمة وتشبيهات بديعة تدل على شاعريته الموهوبة، وهذا المتنبي الفارس الصديق الوفي لجواده يصفه فيحسن وصفه وتهبط عليه المعاني مسلمة له قيادتها والأخيلة والتشبيهات يرسلها في سلاسة قل أن وصل إليها شاعر قبله.

ولابن هانئ في المدح شعر رائع، ولكن المغالاة في المدح تطالعنا

---

(٢) كمنته: استخفيت فيه

(٣) أغر: به غرة

(٤) له فضلة = له عرف حول عنانه

(٦) أدنيه = أقبضه

(٧) يطغى – يتهيج ويشتد في جريه

(٨) أرخيه = أبسطه فيتبختر

(٩) قفيته به = تتبعته به وأنا على ظهره

(١٠) لا يدركه نصب

(١١) كثيرة في عددها قليلة في كرم أصولها

(١٢) الشبة = اللون

(١٣) لم تعرف سر حسنها

بشكل ملموس في مدائحه. ولم يخل شعر المتنبي في المدح من هذه الظاهرة، ولكن تصوير الممدوح في شعر المتنبي أدق والصفات التي يريد أن يبرزها في ممدوحه معبر عنها تعبيرا فنيا يشهد بما للشاعر من حس دقيق وقدرة على التعبير؛ فيصف سيف الدولة الفارس ونزاله فيقول في خصمه بعد هذا النزال:

مضى بعد ما التف الرماحان ساعة ... كما يتلقى الهدب في الرقدة الهدبا
ولكنه ولى وللطعن سورة ... إذا ذكرتها نفسه لمس الجنبا

أما المعز فصفته الغالبة هي الإمامة، ولهذا يقول ابن هانئ:

إمام رأيت الدين مرتبطا به ... فطاعته فوز وعصيانه خسر
أرى مدحه كالمدح لله إنه ... قنوت وتسبيح يحط به الوزر

ويغلو كل منهما في المدح ويغرق في ذلك إغراقا كبيرا يؤخذ عليه فيقول المتنبي في سيف الدولة:

تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى ... إلى قول قوم: أنت بالغيب عالم

ويقول ابن هانئ في مدح المعز:

ما شئت إلا ما شاءت الأقدار ... فاحكم فأنت الواحد القهار

وقد كفره الفقهاء لقوله هذا.

من غرر مدحة "ابن هانئ"

تقول بنو العباس: هل فتحت مصر؟ ... فقل لبني العباس "قد قضي الأمر"
وقد جاوز الإسكندرية جوهر ... تطالعه البشرى ويقدمه النصر

ويمدح جوهرا فيقول:

إذا جـــوهر فيهـــا غمامـــة رحمـــة ... يقـــي جانبيهـــا كـــل جانبـــة تعـــر

كـأني بـه قـد سـار في القـوم سـيرة ... تــود لهــا "بغــداد" لــو أنها مصــر

ستحســـدها فيهـــا المشـــارق أنـــه ... سراء إذا مـا حـل في الأرض والقطر

وله في المدح قوله: (وهو من غرر شعره)

قـوم يبيت علـى الحشـايا غـيرهم ... ومبيــتهم فــوق الجيــاد الضــمر

وتظـل تسـبح في الـدماء قبـابهم ... فكــــأنهن ســــفائن في أبحـــــر

إلى أن يقول:

حـــي مـــن الأعـــراب إلا أنهـــم ... يـردون مـاء الأمـن غـير مكـدر

ومن تشبيهاته البديعة المستملحة قوله في مدح المعز:

أطلـع الحسـن مـن جبينـك شمسـا ... فــوق ورد، في وجنتيــك أطــلا

وكـأن الجمـال خـاف علـى الـور ... د جفافــا فمــد بالشــعر ظــلا

وله في الحكم قصائد تشف عن آرائه الفلسفية في الحياة، من ذلك قوله:

إنا وفي آمـــــال أنفســـــنا ... طـــور، وفي أعمـــارنا قصــــر

لنــــرى بأعيننـــــا مصــــارعنا ... لــــو كانـــت الألبـــاب تعتـــبر

ممـــــا دهـــــانا أن حاضـــــرنا ... أجفاننـــــا، والغائـــب الفكـــــر

وإذا تـــــــدبرنا جوارحنـــــــا ... فــــأكلهن العــــين والنظـــــر

لـــو كـــان للألبـــاب ممـــتحن ... مـا عـد منهـا السـمع والبصـر

إني الحيـــــاة ألـــــذ عيشــــتها ... مــن بعــد علمــي، أنــني بشــر

خرســــت لعمــــر الله ألســــننا ... لمـــا تكلـــم فوقنـــا القـــدر

ويصف تجربته في الحياة وما يلمسه فيها فيقول:

إذا صـــحبت العـــيش أولـــه صـــفوا، فهـــين بعـــده الكـــدر
وإذا انتهيـــت إلى مـــدى أمـــل دركـــا، فيـــوم واحـــد عمـــر
ولخـــير عـــيش أنـــت لابســـه عـــيش جـــنى ثمراتـــه الكـــبر
ولكـــل حلبـــة ســـابق أمـــد ولكـــل نهلـــة وارد صـــدر

إلى أن يقول:

وحـــدود تعمـــير المعمـــر أن يســـمو صـــعودا ثم ينحـــدر
والسـيف يبلـى وهـو صـاعقة وتنـــال منـــه الهـــام والقصـــر
والمـرء كالظـل المديـد ضـحى والفـــيء يحســـره فينحســـر

ويستغرق في تأملاته ويبدع تصوير أحاسيسه ونظرته المتفلسفة للحياة فيقول:

غـرض ترامـى في الخطـوب فـذا قـــوس وذا ســـهم وذا وتـــر
فجـــزع حـــتى لـــيس بي جـــزع وحـــذرت حـــتى لـــيس بي حـــذر

أما حكم المتنبي فيسوقها في عمق، ويكاد كل بيت منها يضيء للإنسان طريقا سليما في الحياة، ولو نثر الإنسان قصيدة مما نظمه في الحكم لاستقلت كل جوهرة من جواهر هذا العقد بمعنى مستقل بنفسه، وإن كانت القصيدة تنظم هذه الدرر جميعها في قافيتها، فيقول:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخـو الجهالـة في الشـقاوة يـنعم
لا يسـلم الشـرف الرفيـع مـن الأذى حـتى يـراق علـى جوانبـه الـدم
والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفـــة فلعلـــه لا يظلـــم
ومـن البليـة عـذل مـن لا يرعـوي عن جهله وخطاب من لا يفهم
ومـن العـداوة مـا ينالـك نفعـه ومـن الصـداقة مـا يضـر ويـؤلم

إن كل بيت من هذه الأبيات حكمة بالغة، ومثل تحفظه الأجيال ولا تبلى له جدة، وقال ابن هانئ الشعر في جميع أغراضه، وديوانه حافل بالمنوعات الشائقة، ومن قوله في النسيب:

امسحوا من ناظري كحل السهاد | وانفضوا عن مضجعي شوك القتاد
أو خذوا مني، ما أعطيتمو | لا أحب الجسم مسلوب الفؤاد
هل تجيرون محباً من هوى؟ | أو تفكون أسيرا من صفاد
أسلو عنكمو من هجركم؟ | قلما يسلو عن الماء الصوادي
فعلى الأيام من بعدكم | ما على الظلماء من لبس الحداد
فلم يزدنا القرب إلا هجرة | فرضينا بالتنائي والبعاد
وإذا شاء زمان رابنا | برقيب أو حسود أو معاد

أما غزل المتنبي ففيه جمال طبيعي وعليه مسحة من البداوة وتقدير الجمال لذاته، وذلك مثل قوله:

لبسن الوشي لا متجملات | ولكن كي يصن به الجمالا
وضفرن الغدائر لا لحسن | ولكن خفن في الشعر الضلالا

وكان الغزل في شعر المتنبي يجئ غير مقصود في مدائحه، وهذه سنة سنها العرب في الجاهلية وسار عليها الشعراء من بعدهم، وذلك مثل قوله في قصيدة نظمها في مدح كافور:

كم زورة لك في الأعراب خافية | أدهى وقد رقدوا من زورة الذيب
أزورهم وسواد الليل يشفع لي | وأنثني وبياض الصبح يغري بي

هذان الشاعران اللذان جمعهما عصر واحد وعاشا في ظروف متشابهة بالنسبة لحياتيهما الخاصة، لم يكونا متماثلين في إنتاجهما الشعري،

وسئل أبو العلاء عنهما يوما وأصدر في شعرهما حكما، ومن كان في منزلة أبي العلاء يعتد بحكمه فهو حجة في هذا المضمار، وقد حكم للمتنبي ولم يجانبه الصواب فأجلسه على عرش المحدثين من الشعراء، وحكم على ابن هانئ فبدت القسوة في حكمه، ولعل حكمه على الشاعرين معا في مقام المقارنة هو إلى جعله يصف شعر ابن هانئ بأنه "الرحى تطحن قرونا".

لقد عاش ابن هانئ في بيئة اجتماعية تختلف عن البيئة التي رضي المتنبي لنفسه أن يعيش فيها؛ فقد خلق المتنبي عزوفا عما يشين وتنفر نفسه من مجالس اللهو والشراب ولم يغرم بمغازلة النساء بل ظل بدويا في طبعه طموحا إلى المعالي معتدا بمواهبه ومثله، ويبدو لك واضحا في مقارنته لحسن البدويات بحسن المتحضرات إذ يقول:

ما أوجه الحضر المستحسنات   كأوجه البدويات الرعابيب

حسن الحضارة مجلوب بتطرية   وفي البداوة حسن غير مجلوب

أما ابن هانئ فعاش في بلاط أمراء، وفي أشبيلية ثاني بلاد الأندلس، آخذا بأسباب الحضارة وحب المرح واللهو والولع الشديد بالغناء وعقد مجالس الأنس والتحرر من عادات المجتمع العربي القديم ومعاقرة الخمر والتغني بوصفها وآثارها، عاش في رياض فيحاء وبساتين مليئة بالزهور والورود، وعلى شواطئ نهر ألبسته الطبيعة أبهى حللها، وفي جو من المدينة بلغ الترف فيه القمة وأصبح التمسك بالقديم فيه ضلالة والابتداع في إشباع الغرائز فيه حلية، وكان ابن هانئ بطبعه مجددا وحرا في آرائه مندفعا في هذا التيار الجارف إلى جرف معظم شعراء الأندلس جميعهم من بعده إلا

قليلا منهم ممن قالوا الشعر في الزهادة والموعظة والخوف من الله.

لهذا لا نعجب إذا رأينا معظم شعراء الأندلس ابتداءً من عصر الخلافة يكثرون من وصف القصور وزينتها والطبيعة وجمالها ومجالس الشراب وما يدور فيها والغانيات وحسنهن، ويطيلون في شرح الهوى والهجر والصد ثم التلاقي والوصل، وقد انحدروا من الحب العذري الجميل إلى الحب الحسي المشبع لغريزة الجسد، ومن الغزل الرائع الشفاف إلى لون من الغزل السافر المعتم ذي الأحاسيس المشبوبة، فأمعنوا حتى في وصف مفاتن جسم الحبيب، ولهذا كان الوصف البديع أعظم ما يميز شعرهم. وقد وصف أحد شعرائهم هذا الجو الذي عاشه هؤلاء الشعراء، وقد أجاد في التصوير إذ يقول:

يا أهـــل أنـــدلس لله دركـــم ... مــاء وظــل وأنهــار وأشــجار
مـا جنـة الخلـد إلا في دياركـم ... ولـو تخيرت هـذا، كنـت أختـار
لا تختشـوا بعـد أن تـدخلوا سـقرا ... فلـيس تـدخل بعـد الجنـة النـار

ويقول آخر:

والليـل مهمـا طـال قصـر طولـه ... هـاتي، وقد غفـل الرقيـب، وهـاك

وجاء ذكر "يحيى الغزال" في أكثر من مناسبة، وأشرنا في أكثر من موضع إلى قصيدته التي قال في مطلعها:

شـاركت في شـرب النبيـذ خطائي ... وفارقــت فيــه شــيبتي وحيــائي

ويتغزل آخر في جارية فيقول:

أنا في عـــذاب مـــن فراقـــك	نشـــوان مـــن خمـــر اشـــتياقك
لا تحســــــبي أني ســـــلو	ت، لمـــا تـــوالى مـــن فراقـــك
شـــــب الفــــؤاد إلى لقـــا	ئـــك وارتشـــافك واعتناقـــك
هـــذى جفـــوني أقســـمت	لا ملتقـــى مـــا لم تلاقـــك

وفي وسط هذه التيارات نجد فئة صالحة من الشعراء الذين يقولون الشعر جدا لا مجونا، ويعبرون به عن أحاسيس تقواهم، ويتخذون منه وسيلة لتحقيق رسالة الخلق السامي والتمسك بالمثل العليا، وكان من هؤلاء الشاعر الزاهد "أبو بكر الزبيدي"، وهو يمثل هذا اللون الجميل في العصر الذي نتحدث عنه.

* * *

أبو بكر الزبيدي

(٣٠٦ – ٣٧٩ هـ) (٩١٨ – ٩٨٩ م)

هو أبو بكر محمد بن الحسن بن عبد الله، العالم الفقيه والنحوي البارع، حذق اللغة ودرسها عن أول أئمتها في عصره "أبي علي القالي" وأحاط بألفاظها وأساليبها وألف في النحو والتاريخ ووضع مختصرا لكتاب العين الذي وضعه الخليل بن أحمد، وقد أدى للغة العربية خدمة غير مسبوقة في بلاده؛ فقد راجع معظم كتب الأدب في عصره وأظهر ما فيها من كلمات عامية، وكانت العامية متفشية في ذلك العصر وصححها بوضع ما يرادفها في العربية الفصحى، وقد اختاره الحكم الثاني (المستنصر) مؤدبا

لابنه هشام المؤيد؛ فأحسن تلقينه اللغة وبصره بالأدب العربي.

وكان الزبيدي – كما قلنا – من الفقهاء المتزمتين المعادين للآراء الفلسفية في العلم، وللاستهتار والمجون في الشعر، وقد اشترك في الحملات التي قام بها العلماء في أواخر حكم المستنصر والمنصور فاستطاع ومعه نفر ممن هم على شاكلته من العلماء أن يدخلوا في روع المستنصر المفكر الحر الميال بطبعه للفلسفة أنه أتى إثما يجب أن يكفر عنه في آخر أيامه، وأفلحوا في تقييد تشجيعه للفلاسفة وذوي الرأي الحر.

أما مع المنصور أبي عامر وزير هشام المؤيد ومغتصب السلطة منه، فقد استجاب لندائهم ونزل على إرادتهم ليضمن تأييدهم له وحملهم العامة على حبه ومناصرته، وعلى الرغم من ميله للآراء الفلسفية الحرة عمد إلى مكتبة القصر، وكانت في أيام المستنصر تزخر بكتب الفلسفة فأخرج كل كتاب يعالج أي موضوع فلسفي، بل وكل كتاب يبحث في علم الفلك، وجمع كل هذه المجموعة الثمينة التي اعتصرها المفكرون من أذهانهم وأحرقها جميعها بنفسه فكانت نكسة قوية بعد الانطلاقة التي انطلقتها الفلسفة في عصر المستنصر وأصبح لها طلاب ومؤيدون.

وقال الزبيدي الشعر في النسيب والغزل، وكان غزله عفيفا رقيقا، أما معظم شعره فكان في الزهد والموعظة وضرب الأمثال والحكم، ومن ذلك قوله:

أيا مسلم، إن الفتى بجنانه ... ومقوله، لا بالمراكب واللبس
وليس ثياب المرء تعني قلامة ... إذا كان مقصورا على قصر النفس

وليس يفيد العلم والحلم والحجى أيا مسلم، طول القعود على الكرسي

وجاء ذكر "أبي علي القالي" في أكثر من مناسبة، وأشرنا في أكثر من موضع إلى المكانة الرفيعة والمكان السامي الذي كان يتمتع بهما هذا الأديب الكبير واللغوي المتمكن من فنه عند الخليفة الناصر الذى رغبه في السفر إلى الأندلس لينتفع بعلمه وأدبه وليجعله من الرواد الذين كلفهم الناصر بالعناية بابنه الحكم الثاني..

* * *

أبو علي القالي

(٢٨٨ – ٣٥٦ هـ) (٩٠١ – ٩٦٧ م)

اسمه إسماعيل، ولقبه أبو علي، واسم أبيه القاسم، وكان أبوه من موالي عبد الملك بن مروان، ولد بالقرب من بغداد وسافر إليها مع جماعة من بلدة "قلى" من أعمال "ديار بكر"، وفيها تلقى العلم والأدب ومكث بها نحو ربع قرن من الزمن عرف خلالها بتمكنه من اللغة وحذقه فقه اللغة ونحوها وأساليبها، ودرس القالي أخبار العرب وأشعارهم، وكان من الرواة الموثوق بروايتهم، وقد بلغت شهرته الخليفة الناصر فأرسل إليه يستدعيه ويرحب بمقدمه لأرض الأندلس، ولم يخيب الشيخ طلبه وقدم على بلاد الأندلس في عام (٣٣٠ هـ – ٩٤١ م) .

وتروي كتب الأندلس الأدبية ما حدث له عند وصوله إلى "المرية" ميناء الأندلس ومقر أسطول الناصر، إذ طير الخبر إلى الناصر وابنه الحكم الثاني فسرهما قدومه وأصدر الحكم الثاني أمره إلى قائد الأسطول "عبد

الرحمن بن رماحس" بأن يحسن استقبال الشيخ البغدادي وأن يصحبه إلى قرطبة، ولم يكتف بهذا التقدير وهذا التبجيل فاختار جماعة من شعراء الأندلس وأدبائها وأمرهم بالسفر وأن يصحبوا القالي في رحلته زيادة منه في تكريمه، وتروي هذه الكتب ما حدث للوافد البغدادي الكبير بعد وصوله والتقائه بها الوفد، فتروي حديثه مع هؤلاء الشعراء والأدباء وهو في طريقه إلى قرطبة، ووصل الحديث إلى أدب عبد الملك بن مروان، وأبو القالي كما أسلفنا من مواليه، فأفاض أبو علي في التحدث عنه وجره هذا إلى ذكر البيت المشهور:

ثمــت قمنــا إلى جــرد مســمومة (أعــرافهن) لأيــدينا مناديــل

وخانت الشيخ ذاكرته فقال (أعرافها) ولم يقل (أعرافهن)، وكان الوفد المصاحب له "ابن رفاعة الألبيري"، ويبدو أنه لم يكن من المقدرين الشيخ حق قدره أو من المعتدين بأدبه وعلمه، فما كاد الشيخ يخطئ في هذه الكلمة حتى استعاده إنشاد البيت مرتين واستجاب الشيخ له ولم يتنبه إلى خطأه هذا، فلما استوثق من خطأ الشيخ ثار وقال "مع هذا يوفد على أمير المؤمنين ونتجشم الرحلة لتعظيمه وهو لا يقيم وزنا لبيت من الشعر مشهور بين الناس لا يغلط الصبيان فيه، والله لا نتبعه خطوة"

ولم يكن ما فعله الألبيري مما يتفق مع كرم النفس ولا كرم الضيافة، ولم يجزه ابن رماحس على تصرفه وحاول أن يثنيه عما صمم عليه، ولكنه أصر وتمادى في سخطه، فكتب ابن رماحس للحكم الثاني، وكان في ذلك الوقت وزير أبيه فرد عليه ردا يدل على رجاحة العقل وكرم النفس والاتزان

في التصرف في الأمور، وفيه يقول: "الحمد لله الذي جعل في بادية من بوادينا من يخطئ وافد العراق علينا" ثم يعطف على شاعره فيقول "وابن رفاعة أولى بالرضا عنه من السخط عليه فدعه وشانه، وأقدم بالرجل غير منتقص من تكريمه فسوف يعليه الاختبار إن شاء الله أو يحطه".

إن رد الحكم يدل دلالة واضحة على إنصافه وبعد نظره، ولم يكن ليحط من قدر القالي مثل هذا النسيان وهو إمام اللغة وحجتها، ويروى له في اللحظة التي وطئت فيها قدمه أرض الأندلس قوله للوفد الذي جاء لتحيته:

"إن علمي علم رواية، وليس علم دراية؛ فخذوا عني ما نقلت فلم آل لكم إن صححت" وقد أخذ الشيخ في بلاط الناصر مكانته وانتفع العلماء والأدباء بعلمه الغزير وتحقيقاته اللغوية ووضعه أسس النحو في الأندلس، وقد اعترف له الجميع بهذا الفضل الذي سجله أحد شعراء الأندلس المعروفين فيقول في مدحه:

من حاكم بيني وبين عذولي ... الشجو شجوي والعويل عويلي
في أي جارحة أصون معذبي ... سلمت من التعذيب والتنكيل
إن قلت في بصري فثم مدامعي ... أو قلت في قلبي فثم غليلي
لكن جعلت له المسامع موضعا ... وحجبتها عن عذل كل عذول

إلى أن يقول في مدحه:

فالشرق خال بعده وكأنما ... نزل الخراب بربعه المأهول
فكأنه شمس بدت في غربنا ... وتغيبت عن شرقهم بأفول

وقد ذكرنا ما حدث له من توقفه عن الخطاب عندما طلب إليه الحكم الثاني أن يتكلم في وفد الروم؛ مما أتاح الفرصة لمنذر بن سعيد أن يظهر ويعظم في عين الناصر ثم يقربه منه ويخصه بكبرى المناصب.

وكان القالي من القلائل العارفين بأسرار اللغة المحيطين بإعراب كلماتها ومعاني ألفاظها ومدلول تراكيبها، وقد تتلمذ عليه عدد كبير من علماء الأندلس مثل الزبيدي وغيره، وقد ألف من الحديث "كتاب العالم" وكتابه "الأمالي"، ومن تسميته يعرف بأنه من إملائه على تلاميذه وهو كتاب جامع يحوي بعض أحاديث الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام وأخبار العرب وأشعارهم وأمثالهم ونماذج من غرر المنثور والمنظوم، فهو موسوعة أدبية جامعة ومرجع يرجع إليه في قصره، وقد أهداه للخليفة الناصر، وقال في إهدائه له كلمة موجزة ولكنها تنم عن قدرة لغوية ممتازة فيقول:

"إني لما رأيت العلم أنفس بضاعة، أيقنت أن طلبه أحسن تجارة؛ فاغتربت للرواية، ولزمت العلماء للدراية. ثم أعملت نفسي في جمعه، وشغلت نفسي بحفظه حتى حويت خطيره وأحرزت رفيعه ورويت جليله وعرفت دقيقه وعقلت شارده ورويت نادره وعلمت غامضه ووعيت واضحه، ثم صنته بالكتمان عمن لا يعرف مقداره، ونزهته عن الإذاعة عند من يجهل مكانه، وجعلت غرضي أن أودعه من يستحقه وأبديه لمن يعلم فضله، وأجلبه إلى من يعرف محله، وأنشره عند من يشرفه وأقصد به من يعظمه".

ولعلي بعد هذه النبذة الموجزة التي تحدثت فيها عن حياة الأدب في عهد الناصر قد وفقت في تصوير هذه الحياة؛ فهي صور عابرة ولكنها

ناطقة وصادقة، وتراجم موجزة، ولكنها تشهد بمكانة الأدب وعلو شأنه في عهد هذا الخليفة المستنير. أما حياة العلم في عهده وعهد ابنه العالم الكبير "المستنصر" فسنفرد لها باباً خاصاً بها، فقد كان الناصر وابنه من مشجعي العلم والأدب، وكان شغفهما بجمع الكتب والإفادة منها لا يعدله شيء آخر، وكان لهما الفضل الأول في إنشاء مكتبة القصر والمكتبة الجامعة والتي كانت من مفاخرهما ومن دلائل التقدم العلمي والأدبي في عصرهما البهي.

* * *

حركة جمع الكتب

من السمات الملازمة لكل النهضات العلمية والأدبية، حركة سابقة عليها، ألا وهي جمع الكتب، وذلك أمر طبيعي لأن الكتب والمؤلفات في كل عصر من العصور خزائن أمينة على التراث البشري وما وصل إليه العلم والأدب في فترة بالذات، فهي صورة مدونة دقيقة الوصف معبرة تعبيرا لا يتطرق إليه الشك عن مدى تقدم المجتمع البشري أو توقفه، وهي عصارة أذهان العلماء والمفكرين والأدباء والمصلحين، بل هي ذوات أنفسهن ومرآة شخصياتهم، وثمرة جهودهم.

وكان عصر الناصر من أزهى عصور الخلافة الأموية في الأندلس، وقد أشرنا في أكثر من موضع إلى حرص خلفاء الأمويين قبل عهد الناصر على تشجيع الأدب والعلم وتشجيع التأليف والتصنيف، ونسخ الكتب القيمة والاحتفاظ بها، وكان من بين هؤلاء الخلفاء من عني بهذا عناية

ملحوظة، فلما جاء عهد الناصر تبلورت الفكرة وبدأ في وضعها موضع التنفيذ، فأمر أن تجمع كتب من سبقه من الأمراء ومنهم جامعون للكتب مثل الأمير محمد والحكم الأول، وأن تضم هذه المكتبات إلى مكتبة القصر التي جمع فيها الناصر كل محصول الشرق من فقه ودين وتاريخ وطب، وكانت هذه المكتبة إحدى مفاخر هذا العصر.

أما خلفه "المستنصر" فكان فذا في غرامه باقتناء الكتب وجمعها مهما كان الجهد والثمن، وكان شغفه بالعلم لا يفوقه شغف، ولهذا كان عهده بعد أبيه كعهد المأمون العباسي بعد عهد الرشيد، وكان بحرا زاخرا في الأدب والتاريخ، وعالما كبيرا بالعلوم الدنيوية مشجعا على دراستها مؤيدا للرأي الحر والتفكير الفلسفي، وقد تبعت حركة جمع الكتب حركة تنسيق وتبويب ونسخ وتعليم، وكان يشارك في التعليق على الكتب بنفسه ويدون على كل كتاب جديد يدخل مكتبته ما يلاحظه على موضوعه ومؤلفه مشفعا ذلك رأيه الخاص وتوقيعه، وقد وصفه "دوزي" فقال:

"لم يحكم إسبانيا يوما من الأيام حاكم على هذه الدرجة من العلم. نعم إن كل من جاءوا قبله من أمراء الأندلس وخلفائها كانوا رجالا ذوي علم وولع بجمع الكتب، ولكن أحدا منهم لم يطلب الكتب القيمة والنادرة بهذه الهمة؛ فكان له في القاهرة وبغداد ودمشق والإسكندرية عمال مكلفون باستنساخ كل الكتب القيمة قديمة كانت أو حديثة، وكان قصره حافلا بالكتب وأهلها حتى بدا كأنه مصنع لا يرى فيه إلا نساخون ومجلدون ومزخرفون يحلون الكتب بالمثمنات والرسوم الجميلة، وكان

فهرست مكتبته يقع في أربع وأربعين كراسة في كل منها عشرون ورقة على قول، وخمسون ورقة على قول آخر، وليس بها إلا أسماء الدواوين لا غير. وأقام للعلم والعلماء سوقا جلبت إليها البضائع من كل قطر".

وقدر بعض المؤرخين عدد المجلدات التي قرأها الحكم الثاني بأربعمائة ألف كتاب، وأنه علق على معظمها بنفسه، وكانت أخبار الكتب القيمة التي توضع في الشرق تصل إلى علمه قبل أن ينتهي من تأليفها مؤلفوها، وكان يوصي بأن تصله نسخة من هذه الكتب مهما كلفه هذا، وحكايته مع أبي الفرج الأصفهاني متواترة معروفة، فقد نمى إليه أنه يؤلف كتاب الأغاني، وكان الأصفهاني في العراق؛ فلم ينتظر حتى يفرغ الأصفهاني من إصدار كتابه، بل أرسل إليه ألف دينار من الذهب، ورجاه أن يبعث إليه بنسخة من هذا الكتاب، وقد استجاب الأصفهاني لهذا الكرم وهذا الشغف العلمي النادر فنسخ الكتاب وأرسله، فظهر في الأندلس قبل أن يظهر في العراق، وأرفق الأصفهاني مع كتابه الأغاني كتيبا في نسب بني أمية وقصيدة يشكر فيها المستنصر، فضاعف له الجزاء وأغدق عليه منحة أخرى ذات قيمة.

ولكن الأحداث التي توالت على الخلافة الأموية بعد عهد المستنصر قد أثرت في هذه الحركة المباركة – حركة جمع الكتب – ولكن النهضة العلمية الأدبية التي نماها وغذاها الناصر وابنه المستنصر لم تتوقف رغم الأحداث الجسام التي مني بها الحكم في الأندلس. وبالرغم من حرق المنصور لكتب الفلسفة والفلك ليرضي الفقهاء ويكسب تعضيدهم له،

فحركة التأليف وجع الكتب لم تتوقف، وحين قضى على خلافة بني أمية وزال ملكهم وقسمت الأندلس أقساما، وقام حكم ملوك الطوائف، لم يؤثر ذلك على هذه الحركة إطلاقا، بل دفعها نحو نهوض أكبر ونحو آفاق علمية أوسع.

وحلت النكبة بعاصمة الناصر، وحكم قرطبة أكثر من حاكم ومجلس وعمتها الفوضى السياسية وتحكمت فيها العنصرية فلم يجد علماؤها فيها الجو الذي ينفعهم فهجروها إلى غيرها من بلاد الأندلس، فنشروا علمهم في أكثر من مدينة وحملوا معهم كتبهم ومراجعهم فكانوا من حيث لا يقصدون عاملا من عوامل استمرار الرقي الحضاري في ربوع الأندلس ونشره في أوسع نطاق ممكن..

وبدأ ملوك الطوائف يقلدون الخلفاء الأمويين في تعلقهم بالعلم والعلماء وتشجيع الكتاب والمؤلفين، واتخذ كل ملك منهم لنفسه بطانة من الشعراء يقربهم ويغدق عليهم ويرقيهم إلى منصب الوزارة ليشيدوا باسمه وليمجدوا أفعاله ويخلدوا ذكره. وفي الجو الذي انعدمت فيه مركزية الحكم تمتع العلماء بجو من الحرية شجعهم على البحث المنطلق فازدهرت العلوم الفلسفية والرياضية والطبيعية ازدهارا غير مسبوق مما أدى للعالم – وبخاصة أوربا – أجل خدمة، ومما كان له الأثر الواضح في نهضتها.

وقد ذكر المؤرخون أن الوزير أحمد بن عباس جمع في مكتبة "ألمرية" وحدها ما يزيد على الأربعمائة ألف كتاب.

ووفدت على الأندلس سفارات متعددة، وكان وفد القسطنطينية

الذي أوفده الإمبراطور قسطنطين إلى الناصر أكبر هذه الوفود شأنا، وكان الكتابان الإغريقيان (كتاب ديوستوريد، وكتاب هيرودوت المؤرخ الإغريقي) أنفس ما قدمت بيزنطة للناصر، وهي تطلب وده وتعتز بصداقته.

* * *

نهضة العلوم والمعارف

في العصر الذهبي

أوجزنا بحث حالة الفكر والاتجاه الأدبي في عصر ما قبل الخلافة، وتطور الحياة الفكرية والأدبية والاجتماعية قبل أن يتولى زمام الحكم الخليفة الناصر، وابنه المستنصر، وتتبعنا في إيجاز أيضاً هذا التطور في عصريهما من الناحية الأدبية، وسنحاول إلقاء الضوء على ناحية أخرى لها أثرها في حياة كل مجتمع وأعني بها التفكير العلمي.

ولم يفرق الناس قديما بين العلم والفن كما أنهم لم يقسموا المعارف الإنسانية إلى أقسامها التي عرفت بها في العصور التاريخية الحديثة، فقد كان العقل البشري في دور الطفولة وكان تفكيره الحر ضئيلا، تقيده خرافات وعادات دينية واتجاهات نحو التصديق بالأرواح والأشباح وتحكمها في مصائر بني الإنسان، وإلى هذه القوى غير المنظورة كان الناس ينسبون كل ظاهرة تخفى عليهم أسبابها لدرجة أنهم اتخذوا لكل قوة من قوى الطبيعة إلها هو المتحكم في هذه الظاهرة الطبيعية، فآمنوا بإله للبحر وآخر للعواصف، وتعددت الآلهة في نظرهم فجعلوا آلهة للمعنويات مثل إله الشر والحرب

وإله الجمال والحب، ولكن العقل البشري بدأ يتحرر شيئا فشيئا، وبدأ ينظر إلى الكون نظرة فاحصة، ويحاول أن يطور فكرته عن مظاهر الطبيعة والوقوف على أسرارها وتعليل مظاهرها، وأن يتخلص من قيود الجهل والخرافة وتعاليم الكهان الذين احتكروا اللاهوت واتخذوه سندا لبسط سلطانهم على الشعوب، الحاكم منهم والمحكوم.

فبدأ علماء الإغريق بتفكيرهم الحر يضعون أساس البحث العلمي وطلبوا الحكمة لذاتها فتكلموا في شتى العلوم والمعارف، وتكلموا في السياسة والقانون والطب والفلك والرياضة والرسم وانتشر علمهم في الشرق والغرب، وكان اهتمام الشرق منصرفا إلى الفلسفات الدينية، ورغم ذلك ظهرت علوم الفنون دعا إلى ظهورها عقائد دينية، ولكنها درست وسجل التاريخ للشرق فيها تقدما ملموسا. وكانت حضارة مصر القديمة بداية هذا التطور في الفكر الإنساني في الشرق، وعلوم أجدادنا القدماء "الفراعنة" وفنونهم كانت في عصرهم الغاية الكبرى التي وصل إليها تقدم العقل البشري، وهذه قضية لا تحتمل الجدل أو النقاش.

ونعود بعد هذه المقدمة إلى المجتمع العربي الإسلامي الذي تطور من الناحية الفكرية تطورا بعيد المدى خلال قرنين من الزمن، ولم يسجل التاريخ نظيرا لهذا التطور في مثل هذه الحقبة القصيرة من حياة الشعوب، فقد امتص وهضم علوم ومعارف الشرق مثل فارس والهند، وعلوم الغرب التي ورثها الروم عن اليونان والرومان، ثم مثلها تمثيلا جديدا وزاد فيها زيادات قيمة، ووصلت نهضته العلمية إلى ذروتها في العصر الذهبي في بغداد وأصبحت كبرى مدن

الشرق مراكز عظيمة للدراسات العلمية، ومنها انتقلت إلى شمال إفريقيا وإلى بلاد الأندلس ثم إلى ربوع جنوب أوربا، وقسم العرب المعارف الإنسانية تقسيما لا يقوم على أساس علمي، ولكنهم عنوا بفصل العلوم الدينية من تفسير وحديث وفقه عن باقي العلوم الأخرى التي وصفوها بأنها علوم دنيوية، ثم عادوا ففرقوا –كما قال أبو علي القالي – بين علوم الرواية وعلوم الدراية، وهو تقسيم له قيمته إذ يفرق بين علوم الرواية التي تعتمد على النقل مثل الأدب بجميع أنواعه والأخبار والتاريخ العام منه والخاص والسير والتراجم وعلوم اللغة والنحو والصرف، وبين علوم الدراية وهي العلوم التي تكتسب بالخبرة والتجربة وتكون المعرفة الأساس الأول لها، ومثل ذلك علم الطب والنبات والحيوان والكيمياء والطبيعة والرياضيات بأنواعها ابتداء من علم العدد "الحساب" إلى الهندسة والجبر والفلك.

وكان مجتمع الأندلس صورة من صور هذا المجتمع الإسلامي، وقد عني العرب والمستعربون في الأندلس أول ما عنوا بعلوم الدين، ولكنهم تعصبوا لبعض المذاهب تعصبا أعمى مما أخر ظهور هذه النهضة العلمية التي نتحدث عنها إلى منتصف القرن الثالث الهجري. ولكن عوامل التطور الحضاري كانت قد استكملت نضجها في عصر الناصر وبدأت العقول تتفتح مغاليقها، وبدأت الرحلات إلى الشرق تتم سرا وعلانية، وشجعت الخلافة بعض هذه البعثات فعاد المبعوثون إلى الأندلس وفي جعبتهم زيادة على علوم الدين والأدب علوم من نوع آخر مثل: الطب والهندسة والجغرافيا والكيمياء والطبيعة والفلك.

ولم يفرق العلماء المسلمون تفريقا واضحا بين العلوم المعتمدة على النقل والعلوم المعتمدة على التجربة، ولكنهم فرقوا قطعا بين النقل والعقل، ولهذا درسوا الفلسفة والمنطق وعلم الأصول، واهتموا بالجدل والمناقشة وتدوين الآراء المختلفة في شتى الموضوعات بالتعليق ووضع الحواشي، ولهذا نستطيع أن نقرر أن فن النقد الأدبي والعلمي نضج نضجا كبيرا على يد علماء العرب وفلاسفتهم. وقل أن تجد عالما من علمائهم أو فيلسوفا من كبار الفلاسفة العرب قد اقتصر في التحصيل على علم واحد أو تخصص في فن بذاته فكان كل عالم منهم موسوعة كاملة للعلوم والفنون والآداب.

ولنضرب مثلا ببعض المشتغلين بالفلسفة من العرب في الشرق، والفلسفة هي أعلى العلوم مكانة وأسماها في نظر الدارسين لها؛ فنجد الكندي يحمل إلى جانب العربية لغته الأصلية، لغتين أجنبيتين هما "اليونانية، والسريانية"، أما علمه فشمل الرياضة والفلك والطب والجغرافيا وله في كل علم من هذه العلوم مؤلفات قيمة. وكان الفارابي يحذق العربية وله أسلوبه العربي الرشيق رغم أنه فارسي الأصل.. ويعتبر الفارابي في نظر بعض الباحثين المنصفين أول السابقين الذين وضعوا منهجا علميا في البحث، وقد وضعه قبل أن يصل إليه "فرانسيس بيكون" بستة قرون على الأقل "الفارابي" توفي عام ٩٥٠ م، وتوفي "بيكون" عام ١٦٢٦ ولم يقصر دراسته على الفلسفة والمنطق ولكنه درس علوما متعددة كان من بينها علم السياسة والحكم وكتابه "أراء أهل المدينة الفاضلة" يدل على عمق

معلوماته في أساليب الحكم، وقد أيد فيه النظام الديني الملكي.

وابن سيناء فيلسوف وطبيب شهد بعلو كعبه في الطب جميع أساتذة العالم، ولكنه كان بجانب ذلك عالما باللغة والأدب والموسيقى، بل وانصرف أيضا إلى الفقه وتفسير القرآن، وكان كتابه "المجموع" الذي ألفه وهو في الحادية والعشرين موسوعة موجزة لكل العلوم المعروفة في عصره عدا الرياضيات..

وكان فيلسوف الأندلس الأول ابن رشد – واحد عصره في تفكيره الحر – وهو من أسرة فقهاء، وأبوه وجده من قضاة قرطبة، وتولى هو نفسه القضاء مما يدل على مكانته في علوم الدين، وتقلد القضاء في أكبر مدن الأندلس "قرطبة، وأشبيلية"، ومع ذلك كان طبيبا يوثق به، وآراؤه في المنطق وعلم النفس من الآراء التي ظلت تدرس في أوربا قرونا طويلة، وكتب في السياسة فأشار إلى وجوب وضع السلطة في أيدي الشيوخ من العلماء، وامتدح حكومة العرب في صدر الإسلام لأنها تتمشى لدرجة ما مع "جمهورية أفلاطون"، ولعله أول من نادى بحرية المرأة وعدم قصر وظيفتها الاجتماعية على الحمل والحضانة وإدارة المنزل، وقال أن عددهن ضعف عدد الرجال، وانتقد أن تعيش النساء عالة على أزواجهن ولا يفيد المجتمع منهن فائدة عملية ترفع مستواهن.

من كل ما تقدم نستنتج أن العلوم والمعارف الإنسانية كانت متداخلة، وأن التمييز بينها لم يكن بالأمر السهل، وبخاصة في العصر الأول للخلافة الأندلسية، وقد ضربنا لذلك مثلا واضحا لما كان عليه هذا

التداخل، ونحن نعدد فصول "العقد الفريد" الذي وضعه ابن عبد ربه، وما احتوى عليه هذا الكتاب من علوم وفنون مختلفة ومسائل فقهية ومشكلات سياسية واجتماعية وأخلاقيات وسير وتراجم وتاريخ، بل وملح ونوادر، وكذلك ما ضمنه "أبو علي القالي" في كتابه "الأمالي" الذي كان جامعا لكل ما حفظه ورواه هذا العالم الجليل.

أما تقسيم الحقائق وبالتالي تقسيم العلوم تقسيما علميا أو منطقيا فلم يتضح ويتحدد إلا خلال القرن السادس عشر، ويقول كثير من المؤرخين أن فرانسيس بيكون (١٥٦١ – ١٦٢٦م) هو أول من قسم الحقائق إلى حقائق تاريخية وموضوعها المسائل الجزئية المدركة بالحواس، وحقائق علمية تبحث في المعاني الذهنية والمدركات الكلية، وهي التي تشغل بال الإنسان وتفكيره والتي يحاول أن يهتدي فيها إلى فهم يرتاح إليه، وهي بالفعل محور تفكير الجنس البشري منذ وجد وتميز بالذكاء والعقل، وهذه الموضوعات الثلاثة هي: "الطبيعة، والإنسان، والإله"، ولهذا جدت علوم تبحث في قوى الطبيعة ومظاهرها والإفادة منها، وهي العلوم الطبيعية مثل: الكيمياء والطبيعة والتاريخ الطبيعي والجغرافيا الفلكية، وعلوم إنسانية تتعلق بالإنسان ككائن حي مفكر متطور، ومنها ما يتعلق بتركيب جسمه ونظامه ووظيفته أو بطريقة سلوكه وتفكيره أو بعلاقته بغيره في دوائر المجتمعات التي يعيش فيها من الأسرة للعالم كله. ومثل الأولى: علم الصحة والطب والتشريح، ومثل الثانية: علم النفس والمنطق والجمال، ومثل الثالثة: علوم الأخلاق والاجتماع والاقتصاد والسياسة.. وقسم علم

الإلهيات كما كان يسميه إلى نوعين: نوع نصدق به دون مناقشة وهو ما أنزل إلينا عن طريق الوحي، نناقشه ونتعرف عليه عن طريق العقل.

ولكن هل كان فرانسيس بيكون هو السابق الأول إلى تقسيم الحقائق فعلا؟

من الإنصاف قبل أن نجيب على هذا السؤال أن نعود إلى تقسيم الشيخ الرئيس ابن سينا للعلوم، وقد توفي ابن سينا قبل بيكون بنحو ستة قرون كاملة، عام ١٠٣٧ م وقد قسم الشيخ الرئيس العلوم إلى ثلاثة أقسام:

أولها: علوم عالية لا علاقة لها بالمادة وهي علوم الحكمة والفلسفة ومباحث ما وراء الطبيعة وعمادها الفكر والمنطق .

ثانيها: العلوم الدنيا وهي المتعلقة بالمادة في شتى صورها وتشمل العلوم الطبيعية جميعها وعمادها التجربة والملاحظة.

ثالثا: علوم وسطى وهي ذات صلة بالأولى والثانية في وقت واحد، وضرب لذلك مثلا بعلم الحساب فهو من حيث طبيعته علم رياضي بعيد عن المادة ولكنه من حيث عملياته وتطبيق هذه العمليات في حياتنا العملية له أساس مادي..

وخلال القرن الثامن عشر أعاد العلماء تقسيم العلوم وكان من بينهم "كريستيان ولف" (١٦٩٧ – ١٧٥٤م) الذي قسم العلم إلى ثلاثة أقسام، ولكن على غير أساس ابن سينا السابق.. أوله: علم تاريخي –

قصصي – يخبرنا بما كان، ودليله التحري وصدق الرواية، ولا تتعرض لسببه أو علته "علم رواية". ثانيه: علم رياضي.. ويبحث في تقدير الأشياء تقديرا كميا وفق وحدة متفق عليها ويشمل الرياضيات والطبيعيات، ثالثه: علم فلسفي، وموضوعه البحث عن علل مظاهر الكون وأحداثه.

وقبل أن نتحدث عن النهضة العلمية الأندلسية في عصر الناصر والمستنصر، وعن بعض العلوم التي ازدهرت في عهدهما نؤكد الحقيقة العلمية التي لا شك فيها، وهي أن هذه العلوم نقلت من الشرق إلى الأندلس ودرست فيه دراسة واعية، ولكن العقل الأندلسي الذي انطلق من عقاله وتحرر ابتداءً من هذا العصر قد شكل هذه العلوم وطورها وهذبها وزاد عليها، منه انتقلت إلى ربوع أوربا فدرست فترة طويلة وأسهمت بقدر كبير في نهضة أوروبا الكبرى التي بدأت معالمها تظهر بعد إجلاء العرب عن الأندلس في عام ١٤٩٢م وبعد أن شحنت علوم العرب إلى مدارس أوروبا وجامعاتها على يد المستعربين الأندلسيين وبخاصة اليهود والنصارى الذين نقلوا عن الأندلس علومها المختلفة واشتغلوا بتدريسها وشرحها كما تلقوها عن العرب، وسنبدأ بدراسة تفصيلية لبعض العلوم التي درست وازدهرت في الأندلس ثم نقلتها عنهم أوربا مكتفين بتطور هذه العلوم في العصر الذي نؤرخ له، وأهم هذه العلوم التي سنتناولها بالبحث هي: الطب، والنبات، والرياضيات، والفلك.

وسنقصر دراستنا لهذه العلوم على العصر الذي نؤرخ له مع أنه في الواقع لم يكن إلا بداية، ولكننا نراعي في ذلك ما أخذنا أنفسنا به وهو

إعطاء القارئ صورة صادقة موجزة عند عهد الناصر والمستنصر، وهذا ما يمكن تحقيقه في مثل بحثنا هذا محدود الصفحات..

* * *

دراسة الطب والنبات

اتجه عماء الأندلس إلى دراسة الطب قبل عصر الناصر بقليل أو بالأحرى وعلى التحديد ابتداء من عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨ – ٢٧٣ هـ). وكان يوسف بن أحمد الحراني الذي وفد إلى الأندلس حاملا بذور هذا العلم الجلل من المشرق من أوائل المشتغلين بالطب وكان له ولأولاده من بعده شأن يذكر في الإلمام به، وقد رحل إلى الشرق ولداه النابهان أحمد وعمر، ونهلا من منهل الشرق الفياض عشرة أعوام ثم عادا إلى الأندلس، وقد امتاز أحمد بحذقه الكبير في تجهيز الدواء وتركيبه، وتخصص عمر في طب العيون لدرجة أن بعض المؤرخين قد نسبوا إليه أنه هو الذي علم الطبيب الأندلسي المشهور "أبا القاسم الزهراوي" كيف يقوم بعملية مياه العين "الكاتاركتا".

وعاد الأخوان إلى الأندلس بعد عام واحد من وفاة الخليفة الناصر فاستقبلهما ابنه الحكم الثاني أحسن استقبال وأكرمهما كل الإكرام واستخلصهما لنفسه، ولما مات عمر ضاعف في إكرام أخيه وتقريبه منه فجعله طبيبه الخاص ومستشاره الناصح وأسكنه في قصره بالزهراء، وقد أثرى من صناعة الطب ثراء فاحشا رغم عطفه على الفقراء والمساكين. وحمله المستنصر على صرف الدواء للمرضى منهم بالمجان، وكان المستنصر

قد أعد له معملا كيماويا خاصا للأدوية التي يركبها، وكان يشتغل في هذا المعمل عدد من فتيان الصقالبة الذين دربهم على هذه الصناعة فحذقوها وبرعوا فيها.

ويبدو أن بعض النصارى من الإسبان كانوا معنيين بدراسة الطب فقد ظهر منهم معاصرون لأسرة الحراني منهم الطبيب النصراني جواد وخالد بن يزيد بن رومان، وابنه المدعو يزيد، وكان ابن يزيد هذا ممن جمع بين الطب والأدب مثله في ذلك مثل سعيد بن عبد ربه المتوفى عام ٣٤١ هـ والذي عرف بالأدب والطب معا والذي كان يعتبر من أوائل الزجالين في الأندلس، وقد وجد له رجز طويل ضمنه حكما طبية نافعة.

وفي العصر الذي نتحدث عنه – عصر الناصر –كانت سوق دراسة الطب رائجة في الشرق أيما رواج، وكان العرب قد وصلوا في هذه الدراسة إلى مرحلة كبيرة وأضافوا إلى ما درسوه من الطب الإغريقي معلومات جديدة في تشخيص المرض ومعرفة علل الأمراض وطرق علاجها والإلمام بخواص النباتات وفوائدها وتركيب الأدوية وتجهيزها، وقد دونوا كل ذلك في كتبهم وأملوه على تلاميذهم.

والمؤرخ المنصف ليذكر لهم فضلهم الكبير في تقدم هذا العلم الرفيع الشأن وما أفادته أوربا من العرب وما كان لهم من أثر مباشر وغير مباشر في النهوض بهذا العلم إلى المستوى الذي وصل إليه في الغرب خلال القرن التاسع عشر والذي كان نقطة تحول كبير في الطب والتشريح وتركيب الدواء. وبدأ العرب يعنون بدراسة الطب في العهد الأموي، وقد ترجم

"ماسر جويه" كتابا قيما في الطب وكان هو الطبيب الخاص للخليفة مروان بن الحكم، وعمل على نشر هذا المترجم بين الناس الخليفة عمر بن عبد العزيز. وفي عهد المنصور العباسي حضر إلى دار الخلافة بدعوة منه الطبيب المشهور "بختيشوع" رئيس أطباء جند يسابور، وأولاده فترجموا له عددا من الكتب في الحكمة والسياسة والفلك والطب، وقد ألف هذا الطبيب الكبير كتابه المعروف باسم "التذكرة"

واستمرت حركة الترجمة والتنقيح والتصحيح في عهد الرشيد وشجع عليها البرامكة الذين أسهموا في نشر العلم إسهاما لا ينكر. وقد بلغت النهضة العلمية ذروتها في عصر المأمون الذي أوفد البعوث إلى القسطنطينية وغيرها من المدن المشهورة بمكتباتها يحملون منه وبأغلى الأثمان كل علم طريف نافع من كنوز المعرفة اليونانية من فلك وطب وفلسفة وقانون ورياضة، وكان هؤلاء المبعوثون ممن يحذقون اللغات الأجنبية مثل: الإغريقية والسريانية، واشتهر منهم الحجاج بن مطر، وحنين بن اسحق، وكان لفيلسوف العرب والإسلام "أبو يوسف يعقوب الكندي" با ع طويل في علم الطب، كما كان للطبيب المعروف "أبو بكر محمد بن زكريا الرازي" المتوفى عام **٣١١** هـ شهرة واسعة في الكيمياء الطبية، وكان كتابه "الحاوي" من أحسن مراجع الطب في عصره.

أما خلال القرنين العاشر والحادي عشر فكان الشيخ الرئيس "ابن سينا" طبيب العالم الأول من غير منازع، ونكتفي في الإشادة بفضله طبيبا، ما ذكره "نوبرجر" في كتابه عن تاريخ الطب عن كتاب ابن سينا المعروف

بالقانون "إنهم كانوا ينظرون إلى كتابه "القانون" كأنه وحي معصوم"، وقد ترجم في أواخر القرن الثاني عشر إلى اللاتينية وكان المرجع الأول للطب في كل جامعات أوربا، وظل كذلك إلى منتصف القرن السابع عشر، كما ترجم أيضا للعبرية وتداوله ودرسه الأطباء اليهود في كليات وجامعات أوربا، ويكفي للدلالة على قدره أنه ما بين اختراع الطباعة – وقد اخترعها يوحنا جوتنبرج الألماني في منتصف القرن الخامس عشر – وبين أول القرن السادس عشر تكرر طبع هذا الكتاب قرابة الأربعين طبعة.

وصول هذا الكتاب إلى الأندلس كان بداية طيبة لاشتغال علماء الأندلس بالطب وحذقهم له وتأليفهم فيه المؤلفات العديدة، والكتاب من حيث موضوعه من كتب الطب الإغريقي الممتازة، وقد حوى معظم النباتات الطبية وخواصها وصورها، وقد أهداها إلى الناصر الإمبراطور البيزنطي قسطنطين السابع ضمن مجموعة ثمينة من التحف والهدايا حملها وفد الروم إلى بلاط الناصر في عام ٣٣٧هـ ٩٤٩م

ولما كان الكتاب مكتوبا باللغة الإغريقية فقد أرسل الناصر إلى الإمبراطور رسالة يطلب فيها إيفاد عالم بالعربية من الإغريق لينقل الكتاب نقلا صحيحا عند ترجمته لتعم الفائدة منه، وقد استجاب الإمبراطور إلى طلبه هذا فأوفد من قبله الراهب نيقولا ليقوم بهذه المهمة فوصل إلى الأندلس عام ٣٤٠هـ. وتألفت من الراهب المبعوث وبعض علماء الأندلس في اللغات لجنة قامت بترجمة الكتاب وتوضيح أنواع النباتات التي ذكرت فيه، وكانت هذه اللجنة العلمية تضم علماء من العرب العارفين

بالإغريقية مثل الفيلسوف الصقلي أبي عبد الله، وكان يتكلم ويكتب الإغريقية كأحد أبنائها، وكانت له في الوقت نفسه خبرة واسعة بصنع العقاقير، ومثل العالم الطبيب اليهودي "حداي بن شيروط" الذي كان يحظى بمنزلة كبيرة عند الناصر ويلازم مجلسه، بل قال بعض المؤرخين أنه استورزه يوما ما.

وعلى ذكر هذا الطبيب اليهودي الذي رعاه الناصر وأفسح له في مجلسه نذكر أن هذا التسامح الكبير الذي أتصف به الناصر والمستنصر كان من أسباب نشر الثقافة الإسلامية الأندلسية في جنوب أوربا أولا ثم باقي دول أوربا على يد يهود الأندلس، فقد شجع الناصر وابنه العلم في كل صوره وفي شتى أنواعه فسمح لحداي هذا ومن تبعه من علماء اليهود أن يدرسوا دراساتهم الدينية "التلمودية" وأن يضعوا نحوا ومعاجم للغتهم العبرية، حتى إذا نضجت هذه اللغة وشاعت بين يهود الأندلس الذين كانوا يجيدون العربية إجادة كاملة بدأت حركة الترجمة من العربية إلى العبرية، وكان الكتاب الذي نتحدث عنه من الكتب التي ترجمت للعبرية ثم اللاتينية. ترجم هذا الكتاب في عهد الناصر وبدأ في دراسته (المشتغلون) بالطب في عهده، ثم اتسعت دائرة هذا العلم في عهد المستنصر وهشام المؤيد بن المستنصر لدرجة أن أبا داود سليمان بن جلجل، وكان من أشهر المشتغلين بخواص النبات، ألف كتابا خاصا دون فيه تاريخ الأطباء وتخصصهم وطرق علاجهم ومعلوماتهم في الطب، وبعد انتشار الكتاب الذي تحدثنا عنه "كتاب ديوسقوريدس" تعددت المؤلفات في الطب

وتنوعت الكتابة في فروعه فنرى مثلا عبد الرحمن بن اسحق بن الهيثم يؤلف كتابا خاصا في "المسهلات والمقيئات" ويؤلف سعيد بن عبد ربه كتابا خاصا في علاج الحميات، بل ومنهم من وضع بحثا في تطور الجنين.

وكان أطباء الأندلس يفضلون الأدوية البسيطة عن المركبة ويعالجون عن طريق أنواع الغذاء قبل أن يلجأوا إلى وصف الدواء، ومنهم من وضع موسوعة شاملة لأسماء النباتات المستعملة في الطب مثل يونس بن اسحق الذي كان يكتب في موسوعته الاسم للدواء الواحد بكل اللغات المستعملة "السيريانية، والفارسية، والعربية (الفصحى والعامية)" ويطول بنا المقام لو تتبعنا هذه النهضة العلمية في الطب، ولكننا نختار من بين أطباء هذا العصر طبيبا يمثل هذه النهضة، كما اخترنا نموذجا واحدا للنهضة الأدبية في الشعر وفن الأدب، ولعلنا وقفنا في اختيارنا هذا:

الطبيب أبو القاسم خلف الزهراوي

(٣٢٤ – ٤٠٣ هـ) – (٩٣٦ – ١٠١٣ م)

والزهراوي نسبة إلى الزهراء عاصمة الخلافة في ذلك العهد، وقد امتاز هذا الطبيب اللامع بفن الجراحة الذي لم يكن يحذقه في هذا العصر إلا النادر من الأطباء، وقد ألف في الطب كتابه المعروف باسم "التعريف لمن عجز عن التأليف"، وهو كتاب جامع شامل لم يترك في الطب صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وكان المرجع الأول والأخير للمشتغلين بالطب، وقد ترجم إلى اللاتينية جملة وأجزاء وتكررت ترجمته أكثر من مرة وبخاصة الجزء الخاص بالجراحة وكان بحق المرشد لكل طبيب متخصص في هذا الفرع من

الطب. وكان هذا الكتاب وكتاب ابن سينا "القانون" أهم المراجع التي يرجع إليها في كل العصور الوسطى، فعلى يديهما وصل الطب في القرنين العاشر والحادي عشر إلى أعلى درجة وصل إليها منذ وجود الجنس البشري.

وقد وضع بعض مؤرخي الأندلس الزهراوي في صف أبقراط وجالينوس، أما مركز ابن سينا فقد فاقهما بلا شك بشهادة أكبر من أرخ للطب في كتابه "من عهد الفراعنة إلى القرن الثاني عشر" وهو الأستاذ "كمستون" cumston إذ يقول: "ما على الإنسان إلا أن يقرأ جالينوس ثم ينتقل منه إلى ابن سينا ليرى الفرق بينهما فالأول غامض والثاني واضح كل الوضوح، والتنسيق والمنهج المنتظم سائدان في كتابة ابن سينا لكننا نبحث عنهما عبثا في كتابة جالينوس".

وللعرب في الشرق والغرب أن يفخروا بما وصل إليه علماؤهم في الطب، ولسكان أوروبا في العصر الوسيط المعاصر لنهضة العرب أن يواروا التخلف البعيد المدى وأن يعترفوا – وهذا أجدر بهم – بما للعرب عليهم من فضل؛ ففي الوقت الذي يسمو مثل الزهراوي وابن سينا بهذا العلم إلى أسمى مراتبه فيضع الأول للجراحة أسسها السليمة ويمارسها الممارسة العلمية المتقنة، ويضع الثاني في الطب حقائق غير مسبوقة فيشرح أعراض المرض ويصف له العلاج الناجح وكيفية تركيب الدواء.

في ذلك الوقت كان الطب في أوربا ضربا من السحر والكهانة، وكان التداوي يتم عن طريق البخور والقراءة والشعوذة وكتابة التمائم والأحجبة

لدرجة أن بعضهم اعتبر طلب التداوي نوعا من الكفر لأن المرض في نظر بعض رجال الدين قدر قدره الله ولا يجب على الإنسان أن يدفعه أو يتخلص منه، وإنما واجبه أن يرضى به ويستسلم له وليلقى ربه راضيا بما قدره عليه.

فإلى أي حد كنا نحن العرب من العلم وإلى أي حد كانوا من الخرافة والجهل؟!.

* * *

الرياضيات والفلك

كان علم الحساب والهندسة من أول العلوم الرياضية التي عني العرب بدراستها؛ فأخذوا الحساب عن الهند، وأخذوا الهندسة والفلك عن اليونان. أما علم الجبر فهو علم عربي ابتدعه واخترعه العرب. وظن بعض المؤرخين أنه من اختراع "جابر بن أفلح الأشبيلي" ولهذا سمي بهذا الاسم، ولكن الثابت أن الذي وضع قواعده هو العالم "محمد بن موسى الخوارزمي".

واشتغل العرب بعلم الفلك الحقيقي والمزيف (التنجيم) ويجب التفريق بينهما لأن الفرق بينهما وإن كان مفهوما اليوم بأنه فرق بين العلم والخرافة إلا أن العرب قد خلطوا بين النوعين ولم يفرق بينهما إلا المتخصصون في العلوم، وقد نسبت إلى الشيخ الرئيس – ويعرف العالم مبلغ علمه ورجاجة عقله – أشعار قالها في مناجاة الكواكب واستلهام عطارد، منها:

عطارد قد والله طال ترددي ... مساء وصبحا كي أراك فأغنما

فها أنت فأمددني قوي أدرك المني بهـا والعلـوم الغامضـات تكرمـا
ورقـني المحـذور والشـر كلـه بأمـر مليـك خـالق الأرض والسـما

وغالى بعضهم فنسب إليه تنبأه بغارة التتار وغلبة الملك المظفر عليهم في أرض كنعان، وأنا أنزه ابن سينا عن مثل الاشتغال بالتنجيم، أما اعتقاده بالأخبار بالغيب فمرده إلى اعتقاده بأن صفاء الروح يؤدي إلى الإشراق فيعلم المتصوف الصادق بما سيحدث قبل وقوعه وذلك من علم الله الذي يؤتيه من يشاء فيكشف عنه الحجاب.

واشتهرت بلاد الشرق ومصر بعلم الحساب وتقدير أيام السنة، وبالهندسة العملية، وقياس المساحات والأبعاد والارتفاعات، وبرصد النجوم والكواكب، ومعرفة الجهات الأصلية. ولم يعنوا في دراستهم بالنظريات كثيرا واكتفوا بممارسة المعلومات والإفادة العملية منها.

أما بحث مصادر الطبيعة ومادة الكون فمن أبحاث الفلسفة اليونانية، ولهذا أطلق على هذا النوع من الفلسفة اسم الفلسفة الطبيعية، فقد ثبت تاريخيا أن "طاليس" فيلسوف اليونان الطبيعي الذي عاش في القرن السادس قبل الميلاد تنبأ بكسوف الشمس كسوفا كليا، وأن هذا الكسوف حدث في عام ٥٨٥ ق. م. وبرع "فيثاغورس" وأتباعه في فن الهندسة، ولا تزال نظريته المعروفة تدرس حتى اليوم؛ فهو أول من برهن على "أن المربع القائم على وتر الزاوية القائمة يساوي مجموع المربعين القائمين على الضلعين الآخرين"، وقال "ديموقريطس" بأن المادة لن تفنى وأنها تتحول فقط".

وتكلم أرسطو في علم الفلك وقال: أن مادة النجوم ليست من العناصر الأربعة التي تكونت منها الأرض (الماء، والهواء، والنار، والتراب) وأنها من مادة "الأثير" وهو العنصر الخامس. وبحث الهنود في شكل الأرض وعلاقتها بالكواكب السيارة.

وبدأ العرب ينقلون إلى لغتهم هذه العلوم وهذه المعلومات خلال الصدر الأول للدولة العباسية ابتداءً من عصر المنصور إلى عصر المأمون، وهذه هي الفترة التي أسس الأمويون في الأندلس فيها دولتهم قبل عصر الناصر. فنقل في عصر المنصور عن الهندية "محمد بن إبراهيم الفزاري" أكبر كتاب في الفلك ألا وهو كتاب "السند هند"، ومعناه "الدهر الداهر" كما نقل كتاب "المجسطي" الذي وضعه بطليموس الإغريقي، الحجاج بن مطر في عهد المأمون العباسي، وقد صحح العرب كثيرا مما جاء فيه، وقد اشترك في هذا التصحيح الخليفة المأمون نفسه، وكان من كبار المشتغلين بعلم الفلك، وقد شرحنا ذلك بالتطويل في كتابنا الأول عن "المأمون العباسي".

وقد توصل العرب إلى قياس محيط الأرض بالتقريب وتقدير الدرجة الأرضية ومعرفة خطوط الطول والعرض، واشتهر بالرياضة البحتة "بنو شاكر" وكان الحسن بن شاكر أعظم رياضي في عصره. كما اشتهر "بنو موسى" بالتأليف في "الحيل" – الميكانيكا – وترجم أكبر كتب الإغريق في الهندسة كتاب "إقليدس" وعلق العرب على بعض نظرياته وعارض علماء منهم بعضها وتشكك في صحتها بعض علماء العرب ومن بينهم "ابن سينا" الذي لم يقصر بحوثه على الفلسفة والطب بل حاول تعليل الظواهر

الطبيعية مثل الزلازل والبراكين، ويكاد تعليله هذا الذي ذكره في كتابه المسمى "الشفاء" ينطبق على ما كان معروفا عن أسباب هذه الظاهرة في أوائل القرن العشرين؛ فيقول رحمه الله:

"أما الزلزلة فإنها حركة تعرض لجزء من أجزاء الأرض بسبب ما تحته، ولا محالة أن ذلك السبب يعرض له أن يتحرك ثم يحرك ما فوقه والجسم الذي يمكن أن يتحرك تحت الأرض ويحرك الأرض إما جسم بخاري دخاني قوى الاندفاع (ويقصد الجسم الغازي)، وإما جسم مائي سيال، وإما جسم ناري (ويقصد المعادن المنصهرة) وهذا الذي يسبب تموج الأرض"

ومعنى ذلك أنه أدرك حدوث الموجة الزلزالية التي لم يقل بها العلماء إلا من بضع سنوات، وأن حركة الأرض الباطنية هي السبب في حدوث الزلازل التي تحدثنا عنها.

ولنعد الآن إلى دراسة هذه الرياضيات في الأندلس وإلى العصر الذي بدأ العلماء فيه هذه الدراسة والعقبات الكثيرة التي صادفتهم والتطورات التي أحدثها علماء الأندلس في هذه العلوم بالذات ومدى تأثيرها في النهضة العلمية بأوربا في عصر ما قبل الخلافة في الأندلس. وقف الفقهاء المتعصبون من هذه العلوم موقفا جعل من العسير أن تنتشر وأن يقبل الناس على دراستها؛ فكل منشغل بعلم غير علوم الدين وما يتبعها زنديق وداع إلى الإلحاد، ولم يستثنوا من هذه العلوم إلا علم الحساب لحاجتهم إليه في المعاملات وتوزيع المواريث وضبط الدخل والإحصائيات، فهو في نظرهم ضرورة اجتماعية لا يمكن الاستغناء عنها.

وكانت دراستهم للحساب دراسة محدودة وفي دائرة العمليات الحسابية البسيطة، أما علم الفلك فلم يؤمنوا بفائدته وكل ما يهمهم معرفته عن طريقه هو ضبط مواقيت الصلاة وتحديد موضع القبلة والتأكد من الأهلة، أما ما عدا ذلك من معارف عن الأجرام السماوية ومداراتها وحركاتها ومركز الأرض منها أو علاقتها بها فأمور تدخل في نطاق الكفر، والبحث فيها خروج على الدين في نظرهم.

والغريب في هذا التعصب الأعمى ضد الفلك ودراسته أن الناقمين على هذا العلم والمحرمين دراسته هم أنفسهم المشتغلون بالنوع المزيف منه "علم التنجيم"، يتركون الحقائق والمشاهدات وثمار التجربة العملية إلى التعلق بالأوهام والخرافات والطالع والنحس والطالع السعيد وأثر الكواكب في حياة الإنسان وتحديد مصيره وإسعاده وشقاوته!!. ويحسبون الأبراج حسابا دقيقا ويترقبون مواعيد اتجاهها نحو الشمس أو ابتعادها عنها ليطلعهم هذا الحساب على ما خبأه الغيب لهم..

والحقيقة التي لا يشك أي باحث فيها هي أن المجتمع المتخلف في كل مكان وزمان يتعلق بالخرافة ويتمسك بها لأنها ترضي قصوره العقلي وتفكيره المغلق، وتزال هذه الغشاوة التي يغشيها الجهل عن أعين المجتمع إذا قدر له أن يتخلص من جهله وأن يبصر نور الحقيقة ويؤمن بها.

وهذا ما حدث بالفعل في الأندلس؛ إذ قام صراع عنيف بين الجامدين المتعصبين لقديم من جمهرة الفقهاء وبين المتحررين المفكرين الراغبين في الانطلاق العلمي، وكان عهد الناصر بداية هذا الصراع، ولم

يكن الناصر ليؤيد فريقا منهما ضد الفريق الآخر ولكنه حاول أن يسلك في سياسته نحوهما طريقا وسطا، وكان ميله أكثر لرجال الدين لعلمه بقوة تأثيرهم في عامة الشعب، ولهذا كان يينزل في الغالب على إرادتهم ويحسب ألف حساب لغضبهم، ولعل من أبرز الأمثلة الدالة على عظم نفوذ هذه الفئة: اضطرار الناصر إلى إخراج جثة عمر بن حفصون بعد دفنه وصلبها والتشهير بها إرضاء للفقهاء المتعصبين الذين صمموا على التنكيل بجثة ميت بعد أن فارقت روحه الحياة.

ولكم عصر الناصر كان عصر استقرار وأمن ورخاء، وفيه بدأت حركة جمع الكتب كما أسلفنا وقيام المكتبات، ثم تلتها حركة النقل والترجمة وهجرة العلماء إلى الأندلس من الشرق والغرب ومن صقلية، وظهور مذاهب دينية غير المذهب المالكي مثل مذهبي: الشافعي، وأحمد بن حنبل. وبدأت حركة الدراسة تشمل علوم اللغة والدين وفن الأدب، وفي الوقت نفسه بدأت دراسة الفلسفة والرياضيات والفلك.. وكانت سنة التطور، وبدأ العلماء الأحرار يفكرون ويدرسون وينقدون.

ولم يستطع المتعصبون أن يحملوا الناصر على اضطهادهم، ولهذا بدأ هؤلاء المفكرون يعملون فرادى وفي طي الخفاء في الأغلب الأعم. ولكن البذرة وجدت تربة خصبة أوغل فيها جذرها وضرب في الأعماق، إذ بدأت دائرة هذا المجهود الفردي تتسع رويدا رويدا. وبدأ الضغط يخف شيئا فشيئا عليها وظهر تسامح الناصر العلمي وعطفه حتى على اليهود وتمكينهم من دراساتهم الدينية واللغوية. ولهذا ظهر في عهده رياضيون

يعتبرون الرواد الأول للرياضة والفلك وكان في مقدمتهم "مسلمة بن القاسم" (٢٩٣ ٣٥٣ هـ) من أهالي قرطبة، وقد تخصص في دراسة الفلك والنجوم "أحمد بن نصر" المتوفى عام " ٣٣٢ هـ– ٩٤٤ م" وله كتاب في المساحة.

ثم ولي الأمر من بعد الناصر ابنه الحكم الثاني "المستنصر بالله"، وقد ذكرنا حبه للعلم وتشجيعه للمفكرين وسماحه لهم بالدراسة والتدريس، ولهذا أخذت هذه العلوم الرياضية والفلكية تزدهر وتنمو وبدأت الدراسة الجماعية لها بشكل منظم، فتكونت في عهده عدة مدارس كان أشهرها مدرسة "مسلمة المجريطي" المتوفى عام ٣٩٤ هـ ومدرسه إقليدس الأندلسي "عبد الرحمن بن إسماعيل بن زيد" المعروف بـ "الأقليدسي"..

وبظهور مسلمة المجريطي، بدأ عهد جديد في النهضة العلمية في الأندلس، وبدأت حركة التأليف العلمي في الظهور فألف العلماء رسالات في الفلك والرياضة والجداول الفكية وصحبت حركة التأليف هذه حركة للترجمة فبدأت النهضة واستوت على سوقها فترجم كتاب "قبة الفلك" لبطليموس ووضعت كتب قيمة في النجوم والكواكب وسرعتها ومداراتها.

أما في الهندسة فقد برع فيها وفي الحساب عدد كبير من العلماء مثل ابن السمح، وكان من أهالي غرناطة، وهو الذي فسر كتاب إقليدس ووضع "المدخل في الهندسة"، و"ثمار العدد"، وكتاب "المعاملات"، وكان من أشهر مدرسي الرياضة في ذلك العهد "إقليدس الأندلسي" هذا الذي اضطر إلى الهجرة منها إلى الشرق بعد أن حدثت النكسة العلمية التي قام

بها المنصور بن أبي عامر، والذي أراد التقرب إلى الفقهاء على حساب محاربة العلوم الرياضية والفلكية. ولكن زمن هذه الرجعة لم يدم طويلا؛ فقد توفي المنصور عام ١٠٠٢م أي في مستهل القرن الحادي عشر وقضى على الخلافة الأموية في الأندلس عام ١٠٢٩م بعد نزاع داخلي شديد وفوضى عامة مما أدى إلى تقسيم هذه الدولة التي بلغت عظمتها في عهد الناصر والمستنصر فأصبحت أشطارا يحكم كل شطر منها أمير مستقل، ويعرف هذا العهد بعهد "ملوك الطوائف"

ولسنا بمؤرخين سياسيين لهذه الفترة التي تمزقت فيها السلطة السياسية الموحدة شر ممزق، ولكن الذي يعنينا هو أن هذه الفترة المتخلفة من الناحية السياسية (فترة القرنين الحادي عشر، والثاني عشر) هي أزهى الفترات العلمية في تاريخ الأندلس، وإنتاج الأندلس العلمي في هذه الفترة هو أغنى تراث علمي ورثته أوربا عن عرب الأندلس، مما كان له أكبر الأثر في النهضة الأوربية الكبرى التي تجلت في القرن السادس عشر واستمر سيرها الحثيث حتى يومنا هذا. وسنذكر لك في الفصل الذي سنتحدث فيه عن أثر حضارة الأندلس في أوربا.

* * *

عصر غروب الخلافة

لم يطل عمر الخلافة الاموية في الأندلس إذ كان عمرها قرنا واحد من الزمن أو يزيد قليلا. تولى الحكم في نصفه الأول الناصر والمستنصر، وتولى الربع الأخير منه عدد من الخلفاء الضعاف فاقدي الشخصية،

وكانت وفاة الحكم الثاني في عام (٣٦٦ هـ – ٩٧٦ م) إيذانا بانقضاء العصر الذهبي للخلافة، وكان ولي عهد المستنصر صبيا لم يجاوز الحادية عشرة من عمره، وقامت وصية عليه أمه التي وضعت السلطة في يد الوزير "محمد بن أبي عامر" الذي قبض على مقاليد الحكم بيد من حديد؛ فأصبح الخليفة هشام الثاني والذي لقب بالمؤيد سجينا في قصره سادرا في نزاوته وشهواته، والأمر كله لابن أبي عامر الذي لقب نفسه بالمنصور تشبها بالخلفاء، والذي أمر أن يدعى له على المنابر مع الخليفة، وأن يكتب اسمه على النقود "الدنانير العامرية"، وأخيرا جعل هذا المنصب الخطير وراثيا في أولاده من بعده.

وكان المنصور من الشخصيات السياسية النادرة، وقد طغت شخصيته على جميع العناصر الطامعة في الحكم، وكان شديد البطش بأعدائه مجزيا للمخلصين له. بدأ أعماله بقتل "المغيرة" أخي الحكم الثاني ليأمن جانبه فلا ينازعه السلطان، واعتمد على جيش له ألفه من فتيان الصقالبة، وهؤلاء لا مطمع لهم فكانوا عونه في إخضاع العرب والبربر على السواء فلم يجرؤ على الخروج عليه واحد منهم، واجتذب إليه الفقهاء ليضمن تأييد العامة وبهر الشعب بانتصاراته المتكررة على الإفرنج، ويؤكد بعض المؤرخين أنه خلال السبعة والعشرين عاما التي حكمها خرج لغزو الإفرنج نحو الخمسين مرة، وأنه لم يهزم في حملة واحد من هذه الحملات المتتابعة، ولهذا أطلق عليه الإفرنج اسم "مطرقة الغضب الإلهي".

ومن الطريف أن بعض الرهبان قال حين علم بوفاته في عام ٣٩٤ هـ

– ١٠٠٢ م "لقد ذهب إلى الجحيم".. أما المسلمون فكان حبهم له منقوشا على قبره إذ كتب عليه:

آثاره تنبيـــك عـــن أوصـــافه حـــتى كأنـــك بالعيـــون تـــراه
تالله لا يأتي الزمـــــان بمثلـــــه أبـــدا ولا يحمـــي الثغـــور ســـواه

وتوقفت النهضة العلمية فترة في عهده، ولكن ازدهر روض الشعر وأينع ثمره، وبلغ من اهتمامه بالأدب والشعر أنه خصص لطبقات الشعراء ديوانا ملحقا ببلاطه، وقد جمع حوله كل نابغة في الشعر وكل مبرز في الأدب، وكان هو نفسه ممن يقول الشعر ويتذوقه.

وتولى الحكم من بعده ابنه "عبد الملك" الذي لقب نفسه بـ "المظفر"، ولم تطل مدة حكمه ومات بعد فترة قصيرة فخلفه "عبد الرحمن" الملقب بـ "شانجول"، وكانت أمه "شانجة" بنت ملك نافار، وكان سيء الخلق فاسد التدبير وأرغم الخليفة الضعيف هشام المؤيد على جعل ولاية العهد له وكان حكمه وسياسته بداية انحلال سياسي مريع فكثرت المؤامرات وصحت العصبيات وشاعت الثورات وقد مات هو نفسه مقتولا. حدث كل هذا والخليفة المتهافت قابع في عقر قصره لا يفيق من سكره ولا يعرف غير لهوه، ولهذا ثار الشعب عليه وخلعه ثم طرده من قرطبة عام ٤٢٢ هـ.

واختل نظام الحكم وتقوضت أركانه، وحاول أفراد من بني أمية أن يجددوا عهد الناصر وأن يعيدوا للخلافة شأنها، ولكن شخصياتهم الضعيفة لم تكن مهيأة للنجاح، وتولى عدد منهم في غمرة الفوضى المستشرية في

أنحاء البلاد، ومنهم من استعان بالنصارى على أمراء المسلمين مثل "المستعين" الذي استعان بهم ليقتل "المهدي"، ومثل "المستكفي" الذي ثار عليه أهالي قرطبة ففر منها متنكرا في ملابس فتاة، ومثل "أبي بكر هشام بن محمد بن عبد الملك بن الناصر" الذي لقب بـ "هشام الثالث"، والذي خلعه أهالي قرطبة فكان آخر خلفاء بني أمية في الأندلس، وبذلك قضي على البيت الأموي قضاء مبرما.

وبزوال الخلافة عام ٤٢٢ هـ– ١٠٢٩م بدأ عهد ملوك الطوائف، فظهر "بنو عباد" في أشبيلية، و"بنو ذي النون" في طليطلة، وانقسم العرب إلى أكثر من عشر ممالك، يحاول كل حاكم منهم أن يفرض سلطانه على الآخرين ويغير بعضهم على بعض ويحارب بعضهم بعضا، وتفرقت كلمتهم فذهب الله بريحهم وتشتت شملهم وطمع العدو في أملاكهم وبدأ ينقضها من أطرافها، وتوالى زحف الإفرنج على بلاد الأندلس، واتفق "ألفونس السادس" مع "عباد الثالث" أير "أشبيليه" وأخذوا طليطلة عام ١٠٨٥ م

هذه هي فترة ما بعد الخلافة من الناحية السياسية، فماذا كان نصيب النهضة العلمية والأدبية في هذه العهود المضطربة وفي عهد ملوك الطوائف والموحدين بصفة خاصة؟ وهذا هو الذي يعنينا في بحثنا. هل توقفت الرسالة بعد عصر المنصور والقضاء على الخلافة؟ وهل منع التدهور السياسي الذي حل بالأندلس حركة العلم والأدب؟ أم كان هذا الانقسام السياسي عاملا مشجعا على ازدهار العلم والأدب وبلوغهما الذروة؟ هذا ما سنبحثه بعد هذه المقدمة التي كان لا بد من البداية بها.

عصر ملوك الطوائف والموحدين

١ – الدين والفلسفة

في الشرق العربي وفي الأندلس اشتغل بعض العلماء بالعلوم الدينية وبالفلسفة في الوقت نفسه، وكل فلاسفة العرب من علماء الدين المتعمقين في دراسته، والحقيقة أن صلة الفلسفة بالدين كانت صلة وثيقة جدا، وقد تحدثنا عن اشتغال بعض العلماء المستنيرين في أول عهد الخلافة بالفلسفة، وكان أبرزهم في هذه الفترة "ابن مسرة" الذي كون له مدرسة في الفلسفة. واشتهر من تلاميذه كما ذكرنا من قبل فقهاء متفلسفون مثل: "منذر بن سعيد البلوطي"، و"الرعيني"، ثم اشتغل بالفلسفة من بعدهما جماعة من المتصوفين وأصبحت "ألمرية" المركز الأول للحركة المتصوفية، وفيها ظهر إمام المتصوفين في الأندلس "محيي الدين بن عربي" الذي كان يلقب بـ"الشيخ الأكبر". أو بابن أفلاطون، واسمه "أبو بكر محمد بن علي بن عربي"، وهو يمثل آخر ما وصلت إليه مدرسة ابن مسرة في التصوف، وقد قضى معظم حياته جوالا في مدن الأندلس والمغرب ومصر والحجاز والعراق حتى لقي ربه في دمشق، وقد بنى على قبره السلطان سليم العثماني قبة كبيرة تعظيما لشأنه واعترافا بمكانته.

والحقيقة هي أنه قل أن وجد من المتصوفين المتفلسفين من وصل إلى مكانة وشهرة هذا الشيخ الأكبر، أما مؤلفاته فعديدة جدا وكلها تدور حول الطريق إلى الله والكشف الرباني والعلم الديني، وفيها كلها يحلل

التفكير البشري تحليلا يخرج منه بقصور العقل الإنساني عن الوصول إلى الحقيقة العليا، وهو في رسالته التي سماها "مواقع النجوم" يحدد لمريديه وأتباعه طريق الوصول إلى الله سبحانه وتعالى، ويشيد بما يجنيه المريد من لذة روحية، وقد رد على بعض آراء الفلاسفة رداً مؤيدا بما يراه من حجج، وكان كتابه المسمى بـ "الحكمة الإلهامية" شبيها بكتاب الإمام الغزالي الذي هاجم فيه الفلاسفة "تهافت الفلاسفة"، والذي رد عليه الفيلسوف ابن رشد في كتابه "تهافت التهافت"

وتكلم ابن عربي كثيرا في النور الإلهي والفيض الرباني وتعليم الله لمن وصل إليه من عباده علما لدنيا عن طريق الصفاء الروحي، وخير كتبه في هذه الناحية كتابه المسمى بـ "الفتوحات المكية"، والذي يقول فيه انه استلهم ما فيه من جواره للحراك المقدس مصدر النور الإلهي، ومنبع الإلهام الروحي. هذا وقد انتشرت آراء ابن عربي في الشرق والغرب وتأثر بمذهبه وآرائه كثير من علماء اليهود والنصارى.

أما الدراسات الفلسفية البحتة فقد وجدت في عهد ملوك الطوائف مجالها الفسيح الخالي من العقبات، ولهذا كان انطلاقها بعد زوال الخلافة في الأندلس انطلاقا لا نجد له نظير اللهم إلا في عصور الفلسفة اليونانية الحرة، وأصبحت دراستها متعة العلماء والباحثين، وانتشرت كتبها في كل أنحاء الأندلس، وأظهر الناس من هذه الكنوز ما كانوا قد خبأوه وأخفوه، وكان ملوك الطوائف من أكبر المشجعين على هذه الحركة التي آتت ثمارها الجنية، والتي وسعت آفاق الفكر في الأندلس ثم في أنحاء أوربا فكان لها

أثرها المباشر وغير المباشر في نهضة هذه البلاد وانطلاقها.

في هذا الجو العلمي الطليق المحرر من القيود انتشرت رسائل إخوان الصفا التي أشرنا إلى نشرها في الأندلس على يد "مسلمة المجريطي"، والتي عني بشرحها وتدريسها في سرقسطة الفيلسوف "الكرماني"، وهذه الرسائل التي بلغت إحدى وخمسين رسالة حوت فنونا في الآداب كما حوت غرائب العلوم والمعلومات وطرائف الحكم، ولكنها كما قال عنها أصحابها "شبه المدخل والمقدمات والأنموذج"

كما انتشرت الأفلاطونية الحديثة، وحاول بعض فلاسفة الأندلس نفس المحاولة التي حاولها الفارابي من قبل، وهي التوفيق بين الدين والفلسفة اليونانية، وكان ممن عني بذلك الفيلسوف "ابن السيد البطليموسي" الذي توفي في القرن الثاني عشر الميلادي، والذي ألف كتابه "الحداق"، وأوضح فيه هذا الاتجاه.

أما أعمدة الفلسفة في الأندلس من بعد الخلافة فهم بلا نزاع ابن باجه وابن طفيل وابن رشد، وهم من حيث المكانة يشبهون فلاسفة الشرق الثلاثة: الكندي، والفارابي، وابن سينا. وفي نفس المدينة "سرقسطة" ظهر الفيلسوف أبو بكر محمد بن يحيى الصائغ، والمعروف ب"ابن باجه" والمتوفى عام **٥٣٢** هـ، ولم يكن على وفاق مع ابن السيد البطليموسي، وقد حقد عليه كثير من كتاب الدولة فهاجر إلى ألمرية ثم إلى غرناطة، وأخيرا استقر به المقام في المغرب ومات في مدينة "فاس"، وكان ابن باجه ملما بالفلسفة اليونانية وله مؤلفات عديدة في شرح هذه الفلسفة

كما كانت له شروح إضافية على بعض ما كتبه فلاسفة الإسلام وبخاصة "الفارابي" و"ابن واقد الأندلسي". ولم تكن الفلسفة وحدها هي محور تفكيره ونشاطه فقد برع في الرياضة والفلك والطب، ولكن التفكير الفلسفي كان هو الغالب عليه رغم تشبعه بالشرح الديني. ويظهر هذا الاتجاه الفلسفي في رسالته التي كتبها لتلميذه "علي بن الإمام" وذلك قبل هجرته من سرقسطة، ومن الفقرات التي اخترناها يتبين أنه لم يأخذ بأساليب المتصوفين، وأنه كان يعتمد على العقل اعتمادا كليا، فيقول لتلميذه المذكور يوصيه بطلب العلم وتحكيم العقل: يؤثر عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله "خلق الله العقل فقال له أقبل فأقبل. ثم قال له أدبر فأدبر، فقال وعزتي وجلالي ما خلقت خلقا أحب إلي منك" فالعقل أحب الموجودات إلى الله عز وجل، والإنسان أحب المخلوقات إلى الله، وعلى قدر قربه منه "العقل" قربه الله. وهذا إنما يكون بالعلم، فالعلم مقرب من الله، والجهل مبعد عنه، وأشرف العلوم جميعا هو هذا العلم الذي قلناه، وأجله مرتبة هذه المرتبة التي هي تصور الإنسان ذاته حتى يتصور ذلك العقل الذي قلناه".

وظهر ابن طفيل بعد ابن باجه، واشتهر بالطب وأصبح طبيبا لأبي يعقوب يوسف المنصور، وقد ترك هذا المنصب لابن رشد، ومات ابن الطفيل أيضا في مراكش عام ٥٨٠ هـ وفي رسالته "حي بن يقظان" أودع آراءه الفلسفية في الوجود وفي الطبيعة والإنسان والعقل، في أسلوب قصصي بديع مزج فيه الحقائق المادية بالرموز، وأوضح فيها طرق العقل

لمعرفة ذات الإنسان ثم طريقه في استخدام قوى الطبيعة. وأخيرا طريقه في التفكير الذي يوصله لمعرفة الخالق، وقد تخيل الفيلسوف بطله طفلا ألقي به اليم إلى جزيرة من جزر الهند الشديدة الحرارة ليوفر للطفل جوا ينمو فيه ويعيش. ويتخيل أن ظبية أرضعته وأنه عاش وحده في هذه الجزيرة التي لا يسكنها أحد، ولكنه مفكر بطبعه وقد بدأ يعرف بيئته ويستخدم قوى الطبيعة فيها ويخضعها لصالحه. ثم شرح كيف رأى النار لأول مرة وكيف عرف خواصها وطرق استخدامها في الدفء، ثم في إنضاج لحوم الحيوان والسمك، وكيف أن اكتشافه للنار قد نقله من طور بدائي بحت إلى طور أسمى في الحضارة، وأنه بعد هذا الاكتشاف أصبح إنسانا أرقى.

ثم تخيل بعد ذلك أن إنسانا متحضرا متدينا قد جاء إلى هذه الجزيرة والتقى "حي" فعلمه الكلام فنطق ثم حمله معه إلى جزيرة مأهولة بالسكان لها حاكم. وهنا بدأ ابن الطفيل يعرب عن رأيه في معتقدات الناس وبخاصة العامة منهم، ووصف كيف لم يستطع "حي بن يقظان" أن يغير معتقدات العامة وطرق تفكيرهم فتركهم وشأنهم وعاد ومعه صديقه الذي التقى به في جزيرته الأولى إلى حياة العزلة والتأمل لينعما بسعادة العقل والتفكير. وقد ترجمت هذه القصة إلى أكثر من لغة وشاعت في الشرق والغرب على السواء.

أما ثالث فلاسفة الأندلس فسنتناوله كعادتنا في اختيار بعض الشخصيات بشيء من التفصيل وهذا الفيلسوف هو "ابن رشد"

ابن رشد

(٥٢٦ – ٥٩٥ هـ) (١١٢٦ – ١١٩٨ م)

واسمه محمد بن أحمد بن محمد بن رشد وكنيته "أبو الوليد"، وقد ولد في قرطبة من أسرة عريقة في الفقه فآباؤه وأجداده من فقهاء المالكية، وتولى القضاء أبوه وجده، ولهذا كانت دراسة الفقه أول ما اتجه إليه ابن رشد، وقد ألف في الفقه كتابه الذي سماه "بداية المجتهد ونهاية المقتصد" ثم درس الطب وألف فيه كتاب "الكليات في الطب"، ولعل اشتغاله بالطب هو الذي حبب إليه الاشتغال بالفلسفة، وكان اشتغاله بالطب من أسباب شهرته وعلو مكانته، فقد قدمه ابن الطفيل للأمير يعقوب بن يوسف من أمراء الموحدين ممتدحا علمه في الطب والفلسفة فقربه منه ثم جعله طبيبه الخاص. ولما آلت إلى يعقوب الخلافة علت مكانة ابن رشد ولمع نجمه وتولى القضاء في "أشبيلية" وفي "قرطبة"، وطلب إليه يعقوب بن يوسف – وكان مولعا بالعلم – أن يتوفر على شرح كتب أرسطو، وصادف طلبه هذا هوى في نفس ابن رشد فلبى طلبه وتفرغ لهذه المهمة الجليلة فكان خير من درس كتب أرسطو وشرحها وعلق عليها، وكان شديد التعلق بمنطق "أرسطو" لدرجة أنه كان يعتقد أن سعادة الإنسان إنما تقاس بمدى علمه بالمنطق لأن علمه به سيوصله إلى الحقيقة التي لا يمكن أن يصل إليها إلا المتعمقون في العلم.

وقد أخرج ابن رشد في عام ١١٦٩م كتابه "شرح لرسالة الحيوان"، وشرح مؤلفات أرسطو شروحا بعضها موجز وبعضها مطور. وقد ترجمت

هذه الشروح إلى معظم اللغات المعروفة مثل اللاتينية والعبرية، وكانت تشمل كل ما عرف عن أرسطو وآرائه في المنطق والنفس والعقل وما وراء الطبيعة.

ولم يكن ابن رشد مترجما أو شارحا فحسب لهذه المؤلفات، بل كان مؤلفا أصيلا في الحكمة والفلسفة، وقد تصدى للرد على الإمام أبي حامد الغزالي عندما أخرج كتابه "تهافت الفلاسفة" فألف في معارضته "تهافت التهافت"، كما نشر كتابا من وضعه سماه "المقدمات في الفلسفة" وموجزا في المنطق ومختصرا للمجسطي في الفلك، ويعتبر ابن رشد زعيم الفلسفة في العالم في عصره وكان وهو يشرح آراء أرسطو يبدي آراءه الخاصة الفلسفية فيقرر أن المادة لم تكن عدما وإنما هي قوة كلية تضم في ذاتها أصول كل الصور، ولما كان المحرك الأول موجودا بإزاء المادة فإنه يخرج ما هو في المادة بالقوة إلى حيز العقل.

وحاول ابن رشد نفس المحاولة التي حاولها الفلاسفة المسلمون من قبله، وهي التوفيق بين الدين والعقل، وهو من أنصار المذهب العقلي ويفرق بين التفسير الحرفي للكتب المقدسة والتأويل الفلسفي لنصوص هذه الكتب، ولهذا يقول "إن الفقيه عنده قياس ظني يقيني، ونحن نقطع قطعا أن كل ما أدى إليه البرهان وخالفه ظاهر الشرع يقبل التأويل"

وفي رأيه أن العقل الفلسفي هو الذي يبين ما يمكن تأويله من العقائد، وهذه النظرية جديدة على الفلسفة، ولابن رشد الفضل في إبرازها، ويرى بعض المتحررين أنه بهذه النظرية قد حل المشكلة التي ظلت

قائمة من عهد ظهور الأديان حتى ظهوره، ألا وهي صلة الحكمة "الفلسفة" بالشريعة. ولكنه باتباعه هذا الطريق وتماديه في هذه المحاولة خرج على بعض العقائد الدينية المسلم بها، ولم يخف رأيه هذا مما جعل الخليفة ينفر منه ثم ينقلب عليه ثم ينفيه إلى بلدة بالقرب من قرطبة ويأمر بحرق كتبه ومعها بعض كتب الفلسفة، وقد ظل منفيا حتى تشفع له جماعة من المقربين من الخليفة فصفح عنه واستدعاه، ولكنه لم ينعم طويلا بهذا الصفح فقد توفي بعد ذلك بقليل في مراكش عام ١١٩٨ م.

أما آراء ابن رشد التي تخالف العقائد الدينية والتي عبر عنها تلميحا مرة وتصريحا مرة أخرى، فتتلخص في نفيه للبعث والخلود، وقوله أن الإنسان لا يعاقب ولا يثاب إلا في هذه الحياة الدنيا، وأن ما جاء في الأديان عن البعث والثواب والعقاب إنما قصد به تخويف العامة وإصلاح حالهم وحثهم على عمل الخير والتمسك بالفضيلة، وأن المطلوب في الدين هو الطاعة وليس العلم، ولهذا يقرر أن الحقيقة مزدوجة: حقيقة العلم والفلسفة، وحقيقة الدين، وكان لهذه النظرية أثر كبير في مباحث النصرانية في أوروبا فقد حمل اليهود بعد طردهم من إسبانيا كل آثار وآراء هذا الفيلسوف المسلم إلى جنوب فرنسا حيث قاموا بنشر آرائه وفلسفته وعمله، وكانت جامعة "مونبيليه" صورة صادقة لما عليه جامعات الأندلس الإسلامية وكلياتها، وكانت آثار ابن رشد العلمية والفلسفية في مقدمة ما يدرس في هذه الجامعة التي تعتبر من أولى جامعات أوروبا..

ولم تقتصر بحوث ابن رشد على الرياضيات مثل الفلك أو على

الطب والفلسفة بل كانت له آراء اجتماعية وسياسية سبقت آراء كتاب العصور الحديثة بعدة قرون، فله مثلا مذهب في الأخلاق يكاد يكون من صنعه – مذهب مستقل بذاته – يقوم على اعتقاده أن الإنسان ليس حرا على الإطلاق ولا مطلقا بغير قيد، أي أنه ليس مخيرا تماما، وليس أيضا مسيرا تماما. ثم نراه يحلل السلوك الإنساني تحليلا دقيقا لا يختلف كثيرا عما يقول به علم النفس الحديث الذي يقول بالدوافع النفسية والمؤثرات الخارجية، فيقرر ابن رشد ما يشبه هذه النظرية الحديثة، وهي من نتاج القرن العشرين، في القرن الثاني عشر إذ يقول: "إن الحرية تكمن في نفس الإنسان ولكنها تبقى محددة بالأحوال الخارجية، وأن العلة المؤثرة في أعمالنا كائنة فينا، أما العلة العرضية فخارجة عنا، وذلك لأن ما يجذبنا مستقل عنا وناشئ عن قوانين طبيعية"، وتفسيره هذا واضح في أثر عوامل البيئة الخارجية.

وسبق هذا الفيلسوف عصره أيضا بعدة قرون في ميدان الاجتماع، بل ولا أغالي إذا قلت أنه أول مفكر إسلامي نادى بتحرير المرأة ودخولها ميدان العمل، وفي هذا يقول "إن حالتنا لا تؤهلنا للإحاطة بكل ما يعود علينا من منافع المرأة فهي في الظاهر صالحة للحمل والولادة والحضانة فقط ما ذلك إلا لأن حالة العبودية التي نشأنا عليها نساءنا أتلفت عليهن مواهبهن العظمى وقضت على اقتدارهن العقلي، ولذا لا نرى بيننا امرأة ذات فضائل أو على خلق عظيم، وحياتهن تنقضي كما تنقضي حياة النبات فهن عيال على أزواجهن، وقد كان سببا في شقاء المدن وهلاكها

بؤسا لأن عدد النساء يربو على عدد الرجال ضعفين فهن ثلثا مجموع السكان ولكنهن يعشن كالحيوان الطفيلي على جسم الثلث الثاني لعجزهن عن تحصيل قوتهن الضروري".

فأي عبقري كان هذا الفيلسوف العظيم!

* * *

٢- الطب والفلك والرياضيات

وقليل ممن درس الطب من علماء الأندلس من لم يدرس مع الطب الفلسفة أو الفلك فقد كان العالم المتبحر في العلوم الرياضية لا يتخصص في علم منها بالذات، بل يحاول الإلمام بها جميعها وهذا كان شأن علماء المشرق من غير الفقهاء والنحويين.

وكان ابن رشد كما أوضحنا طبيبا قبل أن يكون فيلسوفا، ويكاد يكون من المجمع عليه أن الطب على يد علماء الأندلس قد بلغ الذروة خلال القرن الثاني عشر الميلادي، وأن كتب الطب التي ألفوها في هذه الفترة ظلت المراجع التي يرجع إليها الطلاب والعلماء، وظلت كذلك حتى عصر النهضة الأوروبية، وأن هذه المؤلفات بلغت من الأهمية والمنزلة العلمية ما بلغته كتب ابن سينا.

وظهرت هذه النهضة العلمية الكبرى في مركزين عظيمين من مراكز الإشعاع العلمي في الأندلس، وهما مدينتا "أشبيلية"، و"سرقسطة"؛ فظهر في أشبيلية "بنو زهر"، وهم سلالة اشتهروا بالعلوم، وبخاصة بالطب، وكان

أشهرهم "أبو مروان عبد الملك بن زهر"، وابنه أبو العلاء، ثم حفيده أبو مروان بن أبي العلاء الذي توفي في مراكش عام ٥٥٧ هـ ١١٦٢م ونقل جثمانه ليوارى في مقبرة أسرته في أشبيلية.

وينسب إلى أبي مروان هذا أنه أول من نادى بالتخصص في الطب إذ كان المعروف عن كل طبيب أنه طبيب وجراح ومركب للدواء، ولكن أبا مروان كان يرى أن يتخصص في كل فرع من هذه الفروع الثلاثة طبيب يتقنها ثم يقصر دراسته على تخصصه في واحد منها بالذات، ولهذا نراه يعنى عناية خاصة بفحص المريض وتشخيص المرض (الطب الباطني)، ولم يلجأ إلى إجراء الجراحات إلا في أحوال نادرة رغم نجاحه فيها. أما تخصص بعض المشتغلين بالطب في دراسة النبات والأعشاب وإجراء التجارب عليها ثم استخدامها في العلاج فأمر يشهد له بالتفكير الواسع الأفق.

ولهذا الطبيب ميزة أخرى ظهرت في كبار أطباء العرب مثل: ابن سينا، وابن رشد، ولكنه توسع فيها لدرجة أنه جعلها منهجا علميا في الطب. وهذه الميزة هي اعتماده في معرفة أعراض الأمراض وعلاجها على الملاحظة والتجربة العملية والملاحظة الدقيقة، وهذا هو المنهج العلمي لدراسة العلوم. وقد ظهر اتجاهه هذا بوضوح في كتابه "التيسير"، والذي أهداه لـ "ابن رشد"، وقد ألف هذا الطبيب العالم كتابه هذا محررا نفسه من قيد النظريات الطبية التي قررها قدامى الأطباء السابقين عليه، محاولا وضعها تحت الاختبار العملي ليتأكد من صحتها.

وقد نهج منهجه العلمي هذا عدد كبير ممن توفوا على دراسة النبات

مثل العالم النباتي "أبو العباس محمد" الملقب بـ "ابن الرومية" الذي طاف ببلدان المغرب والمشرق فأحصى أنواع النبات مجربا لها واصفا إياها وصفا دقيقا ومقيدا فوائدها وطرق الإفادة منها، وكان ابن البيطار "ضياء الدين أبو محمد بن أحمد" أحد تلاميذه النجباء. هذا وكان ابن البيطار أول نباتي في عصره، وقد خدم الملك الكامل في مصر ومات في دمشق عام (٦٤٥ هـ/ ١٢٤٨م)

ويعتبر كتاب ابن البيطار الذي سماه بالجامع – لجمعه مفردات الأغذية والأدوية – من أنفس ما ألف في هذا الباب فقد ضمنه كل ما ذكره الأطباء والنباتيون من قبله، ثم زاد عليه من تجاربه الخاصة واكتشافاته التي وصل إليها بمحض مجهوده الشخصي ما يربو على الثلاثمائة دواء فصل تركيبها تفصيلا تاما.

هذا موجز محدود لما وصل إليه في علم الطب في هذه الفترة، أما ما وصل إليه التقدم العلمي في الأندلس في الفلك والرياضيات فقد بلغ القمة، وقد انفرد يهود الأندلس بدراسة هذه العلوم دراسة وافية، ثم قاموا بترجمتها إلى العبرية واللاتينية ثم بحمل كنوزها بعد اضطهادهم في إسبانيا إلى جنوب فرنسا حيث اشتغلوا بالتدريس والمحاضرة، وكانت كلياتهم النواة التي أثمرت واستحثت ممالك أوروبا على تشييد الجامعات والاهتمام بالتراث العلمي لعرب الأندلس.

وهكذا يدور التاريخ دورته ويعيد نفسه في شكل آخر، فقديما حين ظهور النهضة العربية الإسلامية نقلت علوم اليونان والفرس والهند إلى

العربية ثم درست وصفاها ونقاها العرب ثم ألبسوها ثوبا علميا قشيبا؛ فجاء اليهود مرة أخرى وترجموا هذه الكنوز العربية إلى لغتهم ولغة العلوم في أوربا وهذه هي سنة الحضارة في الجنس البشري تنتقل من مراكز العلم العالية إلى ما حولها من منخفضات أدنى منها علما ثم تمتلئ هذه المنخفضات فتخرج منها التيارات العلمية، وهكذا إلى ما شاء الله.

وكان ممن تزعم حركة الترجمة والنقل للتراث العربي الأندلسي الفيلسوف اليهودي "أبو عمران موسى بن ميمون" "٥٢٩ هـ– ٦٠٠هـ" "١١٣٥م – ١٣٠٤م" وله مؤلفات عدة في الفلسفة والنبات "شرح أسماء العقار" وقد ترسم هذا الفيلسوف اليهودي خطى ابن رشد في محاولته التوفيق بين الحكمة والشريعة فكان لآرائه أثر كبير في عقيدة أهل ملته.

وفي مدينة "سرقسطة" وفي أيام حكم بني هود ازدهرت العلوم الرياضية والفلكية ازدهارا كبيرا فقد كان المقتدر بن هود (٤٣٨ – ٤٧٣هـ) (١٠٤٧ – ١٠٨١م) وابنه يوسف المؤتمن (٤٧٢ – ٤٧٧ هـ) (١٠٨١ – ١٠٨٥م) من العلماء فعلا ومن المشتغلين بالرياضيات والفلك، وقد ألف المؤتمن بنفسه كتابا في الفلك سماه "الاستكمال"، وقد علق عليه ابن ميمون وقال عنه أنه لا يقل قيمة في بابه عما لكتاب إقليدس في الهندسة، وكتاب المجسطي في الفلك.

ولم تكن مدن الأندلس الأخرى مصابة بالعقم في هذه الميادين فقد ظهر في هذه الفترة العالم الفلكي المشهور "إبراهيم بن يحيى الزرقالي القرطبي"، وقد ظهر في طليطلة ما بين عامي (٤٥٠ – ٤٧٠ هـ)

(١٠٦١ – ١٠٨٠ م) وقد طبق على علم الفلك المنهج العلمي الذي تحدثنا عنه "منهج التجربة والملاحظة"، وعلى أساس هذا المنهج وضع جداوله الفلكية كما وضع أدق الآلات لاستخدامها في الرصد فأدخل تحسينات ذات شأن على الأسطرلاب وابتكر "الزرقالية والصفيحة" وبين دقة ما تستخدمان فيه، وأثبت معلومات لم تكن معروفة عن حركات الكواكب السيارة من قبل، وقد عارض آراء بطليموس وعارضه بعض العلماء من معاصريه ممن كانوا يأخذون كل ما قاله بطليموس قضية مسلمة وحقيقة لا تقبل الشك ولكنه تغلب عليهم وأقنعهم، وظهر كذلك أعلام في العلوم الرياضية من بينهم في سرقسطة "عمرو بن عبد الرحمن" المعروف بالكرماني، وهو الذي ذكرنا قبلا أنه ناشر رسائل إخوان الصفا في الأندلس، وكان حجة في الهندسة والحساب، ويقول بعض المؤرخين أنه لم يكن يجاريه أحد في الهندسة.. كما ظهر في أشبيلية "ابن مسعود" وله رسالة قيمة في "حساب المثلثات"، و"جابر بن أفلح الأشبيلي" الذي ظن بعضهم خطأ أنه واضع علم الجبر، وقد نشر كتابه في الفلك وعنوانه يدل عليه "إصلاح المجسطي"، وله أيضا رسالة في حساب المثلثات.

* * *

الحياة الأدبية بعد العصر الذهبي

انقضى العصر الذهبي للخلافة في الأندلس بانقضاء عصر المستنصر، وتولى الحكم ابنه الصغير هشام المؤيد بوصاية أمه "صبح" وحجابة الوزير المنصور أبي عامر الذي تعطلت في عهده دراسة العلوم

الرياضية والفلسفية، ولكن الحياة الأدبية مشت في طريقها تستكمل ازدهارها فلم تقف عجلتها واستمرت دفعة التطور إلى الأمام. والواقع أن عصري الإمارة وصدر الخلافة كانا بداية لهذا التطور، أما النهاية فلم تبلغ مداها إلا في عصر الموحدين الذين كانوا آخر من حمل عبء هذه الرسالة الرفيعة في هذه البلاد التي كتب عليها أن تذوي زهرتها وتذبل وردتها بعد أن ظلت يانعة مشرقة حوالي الثمانية القرون من عمر الزمن.

وكان عصر ملوك الطوائف على ما اتسم به من تفرق في الكلمة وانقسام سياسي، عصر ازدهار علمي ونهوض أدبي؛ فبعد أن كانت قرطبة عاصمة الخلافة هي مركز الإشعاع وحدها تعددت هذه المراكز المشعة في أشبيلية وسرقسطة وطليطلة وغرناطة، وانتشرت كنوز العلم والأدب من خزائن قرطبة إلى هذه البلاد النامية التي حكمها في الغالب أمراء وملوك كانوا أنفسهم علماء وأدباء، وكان من أول ما يفخرون به تشجيع العلم والأدب. وأصبحت للعلماء والأدباء مكانة سامية فتربعوا في دست الوزارة وشغلوا أعلى المناصب وأخطرها، فكان في قرطبة مثلا الوزير الشاعر "أبو الحزم بن جهور"، وعاش في عهد المنصور، وما بعده الوزير الجليل "أبو المغيرة بن حزم" كما ظهر في قرطبة أيضا أحد شعراء الأندلس المعروفين في الشرق والغرب والذي شبهه بعضهم بالبحتري، كما شبهوا ابن هانئ من قبله بالمتنبي، وهذا الشاعر الذي نعتقد أنه يمثل أدب ملوك الطوائف خير تمثيل هو "الوليد أحمد بن زيدون" (٣٩٤ – ٤٦٣ هـ)

وفي أشبيلية حيث حكم بنو عباد وبخاصة "المعتضد والمعتمد" قامت دولة الشعر وعظمت منزلته وسمت معانيه وتعددت فنونه وأصبح الشعر يصور الحياة تصويرا واقعيا، وبخاصة في عهد المعتمد، فقال الشعراء الشعر في كل أغراضه المعروفة، وأفصح الشعراء في تصوير حياة الترف في عهد المعتمد بن عباد وما كان يدور داخل القصور من متع وسمر وشراب وغناء وجوار حسان، وما فيها من رياض زاهرة وأجواء عاطرة، وأصبحت الخمريات موضوعا مطروقا، والغزل في الشعر أمرا مألوفا، وكان المعتمد نفسه من شعراء عصره المعدودين وله في المضمار جولات وقصائد غرر، وتوثقت بينه وبين شعراء عصره أوثق الصداقات، وكانت علاقته بهم سلسلة حياته في عزه ومجده وسلطانه، وفي محبسه وذله وأسره.

وظهر في بلاط بني الأفطس الشاعر "عبد المجيد بن عبدون" كما ظهر في بلنسية "عبد الجليل بن وهيون"، و"ابن خفاجة" شاعر الخمر والغزل. وحتى في حكم المرابطين – ولم يكونوا ممن يشجعون الآداب والعلوم كثيرا – لم تكسد سوق الأدب لدرجة الجمود، ولكن الأدب ظهر في لون جديد متحرر من القيود فدخلت العامية في الشعر وانتشر الزجل على يد زجال الأندلس الأول "ابن قزام" وظهر الشعر الدراج. وعندما تقلص ظل المسلمين في الأندلس وانكمشت أملاكهم ثم انحصرت في غرناطة وما حولها بدأت هجرة العلماء والأدباء إلى المغرب، ولا تزال لهذه الحركة آثارها في هذه البلاد حتى يومنا هذا.

ونعود الآن إلى بلاط المنصور أبي عامر الذي أنشأ للشعراء في بلاطه

ديوانا خاصا بهم، والذي حدد طبقاتهم وأعطيته لهم، وكان الشعراء يلتفون حوله إن جلس يسمر في قصره ويسمعونه ما تجود به قرائحهم ويجيزهم ويغدق على كل شاعر منهم بقدر إجادته للقصيدة وموهبته في الشعر، فإذا هب لغزو النصارى اصطحب معه من الشعراء من يصف للناس بعد عودته منصورا شجاعته وانتصاراته، وكان على رأس شعراء المنصور: "صاعد البغدادي"، و"المادي"، والوزير "أبو المغيرة بن حزم"

وكان صاعد البغدادي المتوفى عام ٤١٧ / ٤٢٦ هـ شاعرا وأديبا ومؤرخا وكان يدعي الإحاطة بكل علم وفن من فنون الأدب وقد كشف المنصور دعاواه وادعاءاته ولكنه لم يبعده عن مجلسه للباقته وحسن حديثه وحضور بديهته وسرعة خاطره، ويروى أنه أبصر في يد المنصور يوما وردة – في غير وقت ازدهار الورود – ولمح أنها لم تتفتح تماما فجاش الشعر في خاطره وانتهز الفرصة ليمدح المنصور، ولم تكن تفوته فرصة لمدحه فقال مرتجلا:

أتتــــــك أبا عـــــــامر وردة   يـــذكرك المســـك أنفاســـها
كعـــذراء أبصـــرها مبصـــر   فغطـــت بأكمامهـــا رأســـها

أما الشاعر يوسف بن هارون الرمادي، وكنيته أبو عمر، فقد كان من الشعراء المجيدين وممن كان لهم أثر في انتشار الموشحات، وقد ذكرنا للرمادي بعض أبيات طريفة قالها في مدح "أبي علي القالي"، أما الوزير "أبو المغيرة بن حزم" فكان على صلة وثيقة بالمنصور، ومن طريف ما حدث له مع المنصور أن المنصور كان يحب مغنية له من جواريه تدعى "أنس القلوب" وأنها جلست يوما تغنيه بحضرة الوزير ابن حزم، وكان قلبها مع

الوزير فغنت معبرة عما يجيش في صدرها من غرام الوزير بحضرة المنصور فغنت قصيدة منها.

نظري قد جنى علي ذنوبا كيف مما جنته عيني اعتذاري!؟
يا لقومي تعجبوا من غزال جائر في محبتي وهو جاري
ليت لو كان لي إليه سبيل فأقضي من حبه أوطاري

فرد عليها أبو المغيرة على الفور:

كيف.. كيف الوصول للأقمار بين سمر القنا وبيض الشفار
لو علمنا بأن حبك حق لطلبنا الحياة منك بثار
وإذا الكرام هموا بشيء خاطروا بالنفوس في الأخطار

فلما سمع كل ذلك المنصور استبد به الغضب وبادر لحسامه وصاح في الجارية: "قولي واصدقي لمن تشيرين بهذا الشوق والحنين؟" فقالت الجارية: "إن كان الكذب أنجى فالصدق أحرى وأولي، والله ما كانت إلا نظرة، ولدت في القلب فكرة فتكلم الحب عن لساني وبرح الشوق بكتماني، والعفو مضمون لديك عند المقدرة" ثم بكت وأنشدت:

أذنبت ذنبا عظيما فكيف منه اعتذاري؟
والله قدر هذا ولم يكن باختياري
والعفو أحسن شيء يكون عند اقتدار

فعفا المنصور عنها، ووهبها لشاعره الوزير.

أما ابن أبي زمنين؛ فكان شعره من لون آخر يختلف عن ألوان الشعر المعروفة والسائدة في هذا العصر. كان يمثل الزهادة ويغلب على شعره

الطابع الديني والتشاؤم، واسمه بالكامل "أبو عبد الله محمد بن أبي زمنين" (٣٢٤ – ٣٩٨ هـ) (٩٣٥ – ١٠٠٧ م) وهو القائل:

لا تطمئن إلى الدنيا وبهجتها — وإن وشحت من أثوابها الحسنا
أين الأحبة والجيران؟ وما فعلوا — أين الذين هم كانوا لنا سكنا
سقاهم الدهر كأسا غير صافية — فصيرتهم لأطباق الثرى رهنا

هذه لمحة خاطفة صورنا فيها طابع بلاط المنصور وعيشه مع شعرائه، وبقي أن نتحدث عن دولة الشعر التي قامت في عهد الملك الشاعر المعتمد بن عباد الذي بلغ في عهده الشعر الأندلسي ذروة معانيه وأساليبه، وعبر عن حياة المجتمع في ذلك العهد أصدق تعبير، وقد ظهر في هذه الفترة فحول شعراء الأندلس مثل ابن زيدون وابن حمدين وابن عمار وابن اللبانة.

وكان المعتمد نفسه من الشعراء الموهوبين وكانت زوجه "اعتماد" شاعرة، ووزراؤه وندماؤه شعراء، ولم يجد الشعر سوقا رائجة مثل السوق التي قامت في بلاط هذا الملك الشاعر الذي كان يجمع بين علو الهمة وكرم النفس وشجاعة وسماحة العرب مع تذوق للفن وإعزاز له، وقد عاش في خياله أكثر من واقعه وفي مجالس أنسه أكثر من مجالس حكمه. وكان موهوبا بطبعه مرهف الحس رقيق الشعور، وكانت مجالسه تشبه مجالس هارون الرشيد في جمعها لرجال الأدب والشعر، ولم يترك شعراء بلاطه معنى من المعاني لم يطرقوه ولا غرضا من أغراض الشعر قديما وحديثا لم يقولوا فيه شعرا جيدا..

وقد صور المعتمد في شعره حياته كلها منذ نشأته إلى وفاته في محبسه، وكأنه يرسمها من بدايتها إلى نهايتها بريشة مصور بارع يذكر هيامه بالغانيات فيهيم في الخيال ويعصف به الشوق لمن يحب فيشدو شدو الطير المغرد ويستوحيه علو همته، فيمتلكه الفخر فيودعه شعره، وقد أضاع عمره في غمرة اللهو والمرج والجد والطموح حتى أضاع في النهاية ملكه وهوى من سماء عزه وسلطانه وكبلته القيود وغلت الأغلال نفسه قبل يديه وأهاج أشجانه حزنه وذل الهزيمة وبعد الدار فكان يذكر أيامه الخوالي والأسى يقطر من كل لفظ يقوله والشجن يظهر في كل بيت من أشعاره وهو في الأسر، وكان شعره هذا لحنا حزينا يثير الشفقة عليه والرثاء له، وكان شعره هذا وهو في محبسه أكثر صدقا من شعره في وصف لياليه مع جواريه وصحبه من ندماء وشعراء. وسنكتفي في هذا المقام بمقتطفات من شعره في أيام عزه وبؤسه وانطلاقه وقيده، فيذكر شوقه مخاطبا "اعتماد" فيقول وهو يكتب لها:

كتبت وعندي من فراقك ما عندي وشوقي كمن بان من جنة الخلد

ومـا خطـت الأقـلام إلا وأدمعـي تخط سطور الشوق في صفحة الخلد

ولـولا طـلاب المجـد زرتـك طيـة عميـدا. كمـا زار النـدى ورق الـورد

ويقول:

لـولا عيـون الواشـين تـرمقني ومـا أحـاذره مـن قـول حـراس

لـزرتكم لا أكـافيكم بجفـوتكم مشيا على الوجه أو سعيا على الرأس

وقال وهو يبث شوقه جاريته "جوهرة"

جـــــــــوهرة عـــــــــذبني　　منـــــك تمـــادي الغضـــــب
فزفـــــــــرتي في صـــــــعد　　وعـــــــــبرتي في شـــــــبب
يا كوكـــب الحســـن الــــذي　　أزرى بزهـــــــر الشــــــهب
مســـــكنك القلـــب فـــــلا　　ترضـــــى لـــــه بالوصـــــب

ويقول لإحدى المحبوبات، وهو هائم بها مؤكدا لها دوام حبه لها:

أنا في عـــذاب مـــن فراقـــك　　نشـــوان مـــن خمـــر اشـــتياقك
لا تحســـــــبي أني ســـــــلو　　ت، لمـــا تـــوالى مـــن فراقـــك

إلى أن يقول:

هـــــذي جفـــوني أقســــمت　　لا ملتقـــى مـــا لم تلاقـــك

هذا لون من ألوان شعر المعتمد، وفيه يعبر عن عاطفته المشوبة، أما الحالة الحزينة فهي ذاخرة بالمعاني المعبرة النابعة من القلب الكسير النابضة بالأسى والحزن العميق، فيقول رحمه الله بعد أن أبلى بلاءً حسنا في الدفاع عن ملكه وبعد أن ود لو تقابله المنية وهو على ظهر جواده بدلا من أن يلقي به القدر في ذل الأسر.

لمـــــا تماســـــكت الـــــدموع　　وتنهنـــــه القلـــــب الصـــــديع
قـــــالوا الخضـــــوع سياســـــة　　فليبـــــد منـــــك لهـــــم خضـــــوع
وألـــــذ مـــــن طعـــــم الخضـــــوع　　علـــــى فمـــــي الســـــم النقيـــــع

إلى أن يقول:

قـــــد رمـــــت يـــــوم نـــــزالهم　　ألا تحصـــــــــنني الـــــــــدروع
وبـــرزت لـــيس ســـوى القمـــيص　　عـــن الحشـــا شـــيء دفـــوع

ويقول:

أجلـــي تأخـــر لم يكـــن ... بهـــواي ذلي والخشـــوع
مـــا ســـرت قـــط إلى القتـــا ... ل وكـــان مـــن أملـــي الرجـــوع
شـــيم الألى أنا منهمـــو ... والأصـــل تتبعـــه الفـــروع

ولما قيدوه بالحديد وأثقله القيد قال:

تبـدلت عـن عـز ظـل البنـود ... بـذل الحديـد وثقـل القيـود
وكـان حديـدي سـنانا ذليقـا ... وعصـيا رقيقـا صـقيل الحديـد
فقـد صـار ذاك وذا أدهمـا ... يعـض بسـاقي عـض الأسـود

وينظر إلى حوادث الزمان وهي قلب وأحداث الدهر وهي غادرة فينهى عن الاغترار بها ويحذر من غيرها فيقول:

أرى الـدنيا الدنيـة لا تـواتي ... فأجمـل في التصـرف والطـلاب
ولا يغـررك منهـا حسـن بـرد ... لـه علمـان مـن هـب الـذهاب
فأولهـا رجـاء مـن سـراب ... وآخرهـا رداء مـن تـراب

ويقول معزيا نفسه ومحاولا إقناعها لترضى بما قدر لها فيقول:

اقنـع بحظـك في دنيـاك مـا كـانا ... وعـز نفسـك أن فارقـت أوطـانا
في الله مـن كـل مفقـود لنـا عـوض ... فأشـعر القلـب سـلوانا وإيمـانا

ومرة يستبد اليأس بنفسه ويهب بأمله طول الأسر وعذابه فيقول:

نؤمـل للـنفس الشـجية فرحـة ... وتأبى الخطـوب السـود ألا تمـاديا
نعـيم وبـؤس ذا لـذلك ناسـخ ... وبعـدهما نسـخ المنـايا الأمانيـا

أما خير من يمثل شعر عصر ما بعد الخلافة فهو في تقديرنا الشاعر النابه الذكر العظيم القدر.

أحمد أبو الوليد بن زيدون

(٣٩٤ – ٤٦٣ هـ) (١٠٠٣ – ١٠٧٠ م)

وهو الشاعر الكبير والناثر الفذ والأديب الذي يقف في مقدمة الصف الأول بين شعراء الأندلس وأدبائها، وهو سليل أسرة اشتهر أفرادها بالعلم والأدب، وتولى أبوه منصب القضاء بقرطبة، وقد أولى تنشئة ابنه هذا عناية فائقة واختار له أحسن المؤدبين والرواد، وكان أحمد بن زيدون شعلة ذكاء متقدة وقد وهبه الله ملكة شعر ممتازة وكان وسيم الطلعة جميل الصورة درج في بيت عز فكان مدللا مترفا وكان كشبان عصره يهيم بالحسان ويتغزل في جمالهن ويستوحي من جمالهن وظرفهن خيالا له رائعا يظهر في شعره إلى كان ينساب إلى النفوس فيهزها هزا وينفذ إلى الأفئدة فيملؤها طربا، وكان يحضر مجالس الأنس ويحسن وصفها..

ودرجت بعض فضليات نساء قرطبة على إقامة الندوات الأدبية يجتمع فيها الوزراء والأمراء والأدباء والشعراء يسمرون وينشدون الأشعار ويستمعون لرقيق الغناء، وكانت ندوة "ولادة بنت المستكفي" من أكبر هذه الندوات وكانت "ولادة" ذات حسن وجمال ودلال وسليلة بيت الخلافة وأديبة لا يلحق لها غبار، يستهويها الشعر والموسيقى، وتطرب لسماعهما شأن أفراد أسرة بني أمية من عاش منهم في الشام ومن عاش من سلالتهم في الأندلس.

وعاش ابن زيدون حياة الصبا في قرطبة في أحلك عهودها وأظلم عصورها في عهد غروب شمس الخلافة الأموية وزوال نورها وانطفاء نجمها،

فترة التناحر على الخلافة وإثارة الفتن وبعث الاضطرابات وانتشار الدسائس والانقلابات، وكان آخر من قلده أهالي قرطبة خلافة من البيت الأموي هشام الثالث الذي لقب بالمعتز بالله، ولكن الوهن كان قد أجهز على هذا البيت الأموي فلم يعد فيهم من يصلح لهذه المهمة الخطيرة، وأخيرا قر رأي وجوه القوم على التخلص منهم جملة وأجمعوا رأيهم على أن يتولى الحكم واحد منهم بأمرهم، وأن يرعى باسمهم مصالحهم، ووقع اختيارهم على "أبي الحزم جهور بن محمد بن جهور"، وهو من أسرة قديمة ومن المشهود لهم بالكفاية وبعد النظر وحسن التدبير، وقبل عرضهم ونزل على إرادتهم على أن يشترك معه في الحكم مجلس شورى من شيوخ قرطبة وعلمائها وأصحاب الرأي فيها، وكان ابن زيدون من جانبه وقد لمس أبو الحزم ما في هذا الشاب من مواهب وما فطر عليه من ذكاء فاستخدمه في كتابة رسائله وتنبأ له في قرارة نفسه بمستقبل باهر، ولكنه كان يدرك في الوقت نفسه ما جبل عليه ابن زيدون من طموح وما ركب فيه من حب المخاطرة والمغامرة.

والحقيقة هي أن شاعرنا الشاب كان مغامرا ومستهترا إلى حد ما، مرحا لبقا سريع الخاطر حاضر النكتة، وقد أغرم به عدد غير قليل من أجمل فتيات قرطبة من الشغوفات بشعره وأدبه والمعجبات بحسن ظرفه وجمال حديثه فكان نجم مجالسهن ومحور أحاديثهن، وقد ترامى كل ذلك إلى مسامع "ولادة" فتاقت نفسها لرؤيته والتمتع بحلو حديثه والاستمتاع لرائع شعره فدعته إلى ندوتها وقربته منها فرأى جمالا لم تقع عليه عينه من

قبل وأدبا عاليا لم يصادفه في حياته، وشاعرة تقول الشعر وتتذوقه وأديبة عالمة بتطور الأدب وحاذقة بفنونه، فقصر ابن زيدون عليها حبه وجعلها وحدها وحي إلهامه ومنبع وحيه ومثار شاعريته فكان تلاقيهما جنة خلده وفراقهما سعير عذابه، وكانت ولادة كما يصفها ابن بسام "واحدة أقرانها حضور شاهد وحرارة أوابد وحسن منظر ومخبر وحلاوة مورد ومصدر"

وكان شعر ابن زيدون الذي أنشده فيها أروع ما قيل في الأندلس في الحب شعر ابن زيدون الذي أنشده فيها أروع ما قيل في الأندلس في الحب والشكوى من البعد وأرق ما يقال في الغزل، وديوانه زاخر بتغريده الحلو في معشوقته الجميلة العالية التهيب والعالية النسب، وسنورد على طريق المثال بعض هذه الألحان المغردة التي كان يصدح بها هذا البلبل الذي شبهه لسلالة شعره بعضهم بالشاعر "البحتري" شاعر الشرق في زمنه، ومن شعر ابن زيدون الموسيقي الذي كانت تتغنى به قرطبة قوله:

يا ليـــت شــعري وعنــدي ... مـــا لـــيس في الحـــب عنـــدك
هـــل طـــال ليلـــك بعـــدي؟ ... كطـــول ليلـــي بعـــدك؟
ســـلي حيـــاتي أهبهـــا ... فلســـت أملـــك ردك
الـــدهر عبـــدي لمـــا ... أصـــبحت في الحـــب عبـــدك

وقوله:

مـــتى أبثـــك مـــا بي؟ ... يا راحـــتي وعـــذابي!!
مـــتى ينـــوب لســـاني ... في شـــرحه عـــن كتـــابي؟
يا منيـــة المتعـــزي ... وحجـــة المتصـــابي..
الشـــمس أنـــت تـــوارت ... عـــن ناظـــري بالحجـــاب

مــــا البــــدر شــــف ســــناه   علــــى رقيــــق الســــحاب
إلا كوجهــــــــك لمــــــا   أضــــاء تحــــت النقــــاب

وقوله:

قــــل لمــــن دان بهجــــري   وهــــــواه لي ديــــــن
يا هــــــلالا تــــــتراءا   هـ نفــــوس لا عيــــون
عجبــــا للقلــــب يقســــو   فيــــك، والقــــد يلــــين!

ويقول وقد هزه الشوق لولادة:

إليـك مـن الأنام غـدا ارتيـاحي   وأنت على الزمان مدى اقتراحي
ومـا اعترضـت هـموم الـنفس إلا   ومــا ذكــراك ريحــاني وراحــي
فـديتك أن صـبري عنـك صـبري   لـدى عطشـي على المـاء القـراح
ولي أمــل لــو الواشــون كفــوا   لأطلــع غرســه ثمــر النجــاح

وعلا نجم ابن زيدون عند ابن جهور فأسند إليه منصب الوزارة بل ولقبه بذي الوزارتين لأنه وزيره وسفيره إلى أمراء الأندلس، وقد أنشد ابن جهور قصيدة قالها في حضرته قبل اختياره له وزيرا وهي مدح رفيع خالطه اعتزاز الشاعر بنفسه وموهبته مثله في ذلك مثل المتنبي وهو يمدح سيف الدولة أو كافور، فيقول ابن زيدون:

أمثلـي غفـل خامـل الـذكر ضـائع   ضياع الحسام العضب أصدأه الغمد
أنا السيف لا ينبو مع ضربه غربه   إذا ما نبا السيف الذي تطبع الهند

ثم يخاطب ابن جهور فيقول:

بــدأت بنعمــى غضــة – إن توالهــا   فحســن الألى في أن يواليهــا ســردُ
لعمــرك مــا للمــال أســعى فإنمــا   يرى المال أسنى حظه الطبع الوغد

ولكــن لحــال أن لبســت جمالهــا كسوتك ثوب النصح أعلامه الحمد

وقد بلغه أبو الحزم أمنيته وزاد عليها فكان وزيره وسفيره وصاحب رأيه وموضع استشارته، وأثار تقربه هذا من الأمير حسد الكثيرين وكان على رأسهم الوزير أبو عامر بن عبدوس فقد كان ابن زيدون ينافسه في المنصب وينافسه في حبه لولادة. وكان يعرف ما يقوله حساده فيه ولكنه لا يعبأ بوشاياتهم ويترفع عن محاربتهم بمثل سلاحهم فيقول:

عفا عنهم قدري الرفيع فأهجروا وبايـنهم خلقـي الجميـل فعـابوا
إذا راق حسن الروض أو فاح طيبه فمـا ضـره إن طـن فيـه ذباب

وبعثه ابن جهور مرة في أمر ذي بال إلى "المظفر" صاحب بطليموس فأكرمه كل الاكرام وطاب له عنده المقام، وكانت جواسيس ابن عبدوس وراءه في بعثته للسجل عليه كل كلمة يقولها، وكان ابن زيدون متحررا في مجلس المظفر وتحضره النكتة أو الفكاهة فلا يتردد في إرسالها فتحصي عليه وترسل لفورها لابن جهور الذي كان يثق في كفايته لكنه كان يخشى طموحه وقد أغضبه ما قاله ابن زيدون في المظفر، وقد وشعه من الامراء جميعهم في مكان الصدارة، ومن حق ابن جهور أن يغضب، إذ يتصف ابن زيدون صاحب بطليموس بقوله:

مليــك إذا ســابقته الملــوك حـوى الخصـل أو ساهمته سـهم
فــأطولهم بالأيادي يــدا وأثبــتهم في المعــالي قــدم
وأروع، لا معتفــي رفــده يخيــب. ولا جــاره يهتضــم
ذلــول الدماثــة صــعب الإباء ثقيــف العــزيم إذا مــا اعتــزم

واستمر أعاديه وحساده ينصبون له الشباك ويحيكون له الدسائس حتى أغاروا عليه صدر ابن جهور فأمر بحبسه وقد أرسل إليه مرارا يستعطفه ولكن ذلك لم يكن ليفجر عطف ابن جهور عليه، ومن أحسن ما بعث به إليه قوله:

إيــه . أبا الحــزم . اهتبــل منــه	ألسـنة الشـكر عليهـا فصـاح
لا طـــار بي حـــظ إلى غايـــة	إن لم أكـن منـك كـريش الجناح
لم يثنــي عــن أمــل مــا جــرى	قـد يرقـع الخـرق وتؤسـى الجـراح
وقـاك مـا تخشـى مـن الـدهر مـن	تعبـــت في تأمينـــه واســـتراح

وقد وسط للعفو عنه كل من يرجو من وساطته الخير، وسط ابن أبي الحزم نفسه أبا الوليد، ولكن أباه لم يستمع لشفاعته فيه ووسط ابن عميد الجماعة، وكتب إلى صديقه الوزير أبي حفص بن برد وله عند أبن جهور منزلة أثيرة، كتب له يقول:

يا أبا حفـــص ومـــا ســـا	واك في فهـــــــــــــم أياس
أنا حـــــيران . وللأمـــــــ	ـــــر ظهـــور والتبـــاس
لا يكـــــن عهــــدك وردا	إن عهـــدي لـــك آســـى
وأدر ذكـــــرى كاســـــا	مـــا امتطـــت كفـــك كـــاس
وعســـى أن يســـمح الدهـــ	ـــر فقـــد طـــال الشـــماس

وقضى أبو العزم بن جهور نحبه وتولى الأمر من بعده ابنه أبو الوليد وهو من أخلص أصدقاء ابن زيدون فقابله بالعناق والترحاب والاعتذار عما فعله أبوه واستجاب ابن زيدون لإخلاص صديقه ورثى أبا الحزم بقصيدة عصماء يقول فيها راثيا ومهنئا:

ألم تـر أن الشـمس قـد ضـمها القـبر | وأن قـد كفانا فقـدنا القمـر البـدر
أن الحيـا[1] إن كـان أقلـع صـوبه | فقـد فـاض للآمـال في إثره البحـر
إساءة دهـر أحسـن الفعـل بعـدها | وذنـب زمـان جـاء يتبعـه العـذر
فلا يتهن الكاشـحون[2] فمـا دجـا | لنـا الليـل . إلا ريثمـا طلـع الفجـر
وإن يـك ولي جهـور "فمحمـد" | خليفتـه العـدل الرضـا وابنـه البر
عـزاء. فـدتك الـنفس عنـه فـإن ثـوى | فإنـك لا الـواني[3]ولا الضـرع الغمـر[4]
لـك الخـير إني واثـق بـك شـاكر | لمثـنى أياديـك الـتي كفرهـا الكفـر
فصـــدق ظنـــونا لي وفي فـــإنني | لأهـل اليـد البيضـاء منـك ولا فخـر
ومـن يـك للـدنيا وللـوفر سـعيه | فتقريبـك الـدنيا وإقبالـك الـوافر[5]

وعاد الصفاء إلى قلب ابن زيدون، وغمره أبو الوليد بعطفه ولكن ألسن الحساد القدامى لم تكف عن الوشاية به، وتكرر ما حدث في حياة أبي الحزم فقد أرسل أبو الوليد ابن زيدون لسفارة بينه وبين إدريس الحسني صاحب مالقه فأكرمه كل الإكرام وغمره بتقديره وعطاياه وحبب إليه البقاء معه، وطابت نفس ابن زيدون إليه وأطال بقاءه عنده فوجد الواشون سبيلهم للكيد له عند أبي الوليد كما فعلوا عند أبيه من قبل. فلما عاد ابن زيدون إلى قرطبة وأدرك بذكائه وقوة ملاحظته أن وراء ابتسامات أبي الوليد برق ورعد، وكان قد كتب إليه المعتضد بن

---

[1] – الحيا = مقصور المطر
[2] – الكاشح = الذي يضمر لغيره العداوة
[3] – الواني = الضعيف
[4] – العمر = الذي لم يجرب الأمور
[5] – الوفر = المال الكثير

عباد يدعوه إلى أشبيلية ويعرض عليه أرفع المناصب فلبى الشاعر دعوته..

وأرادت ولادة أن تلحق به فلم تتمكن، وبر المعتضد بما وعد وعاش الشاعر في كنفه عزيز الجانب عظيم الجاه مسموع الكلمة، ولكن هذا البعد لم ينسه ولادة وحبها وعاش على ذكرياته معها في قرطبة يهزه الشوق فيشدو في شدوه الأخير لوعة وأسى، فانظر إلى قوله:

أضحى التنائي بديلا من تدانينا ... وناب عن طيب لقيانا تجافينا
ألا وقد حان صبح البين صبحنا ... حين فقام بنا للحين ناعينا
أن الزمان الذي مازال يضحكنا ... أنسا بقربهم قد عاد يبكينا
فانحل ما كان معقودا بأنفسنا ... وانبت ما كان موصولا بأيدينا

إلى أن يقول:

بنتم وبنا فما ابتليت جوانحنا ... شوقا إليكم، ولا جفت مآقينا
نكاد حين تناجيكم ضمائرنا ... يقضي علينا الأسى لولا تآسينا
حالت لفقدكم أيامنا فغدت ... سودا وكانت بكم بيضا ليالينا

ثم يستبد به الشوق فيقول:

يا ساري البرق غاد القصر واسق به ... من كان صرف الهوى والود يسقينا
ربيب ملك كان الله أنشأه ... مسكا، وقدر إنشاء الورى طينا
يا روضة طالما أجنت لواحظنا ... وردا جلاه الصبا غضا ونسرينا
ويا حياة تملينا بزهرتها ... مُنى ضروبا ولذات أفانينا
لسنا نسميك إجلالا وتكرمة ... وقدرك المعتلي عن ذاك يغنينا

إلى أن يقول:

يا جنة الخلد أبدلنا بسدرتها والكوثر العذب زقوما وغسلينا
إنا قرأنا الأسى يوم النوى سورا مكتوبة وأخذنا الصبر تلقينا

ولم يطل أجل المعتضد بن عباد، وخلفه ابنه الشاعر الكبير المعتمد بن عباد، فلاقى ابن زيدون المعتضد بقصيدة بليغة قال في مطلعها:

هو الدهر فاصبر للذي أحدث الدهر فمن شيم الأحرار في مثلها الصبر
ستصبر صبرا اليأس أو صبر وحشة فلا تؤثر الوجه الذي معه الوزر

ثم يعرج على المعتضد فيقول فيه:

أأنفس نفس في الورى أقصد الردى وأخطر علق للهدى أفقد الدهر
أعباديا أوفى الملوك لقد عدا عليك زمان من سجيته الغدر
فهلا عداه أن علياك حلية وذكراك في أردان أيامه عطر
غشيت فلم تغش الطراد سوانح ولا جردت بيض ولا أشرعت سمر
لئن كان بطن الأرض هنئ أنسه بأنك تأويه لقد وحش الظهر

ثم انتقل إلى خليفته محمد أبي القاسم المعتمد بن عباد يعزيه ويهنئه فيقول:

لك الخير أم الرزاء كان غيابه طلعت لنا فيها كما طلع البدر
فقرت عيون كان أسخنها البكا وقرت قلوب كان زلزلها الذعر

ثم يختتم قصيدته بالبيت المشهور، وهو من غرر المدح، يقول في المعتمد:

عطاء ولا من وحكم ولا هوى وحلم ولا عجز وعز ولا كبر

وقد جرى المعتمد على سنة أبيه في تكريم ابن زيدون حتى إذا لقي ربه أكرم ابنه أبا بكر وأحله منه محل أبيه فاتخذه وزيرا له ولم يسمع فيه قول حاسد أو واش.

هذه حياة شاعر ناثر عظيم، وهي حياة أمة في صورة شاعر؛ ففي حياته الخاصة صورة ناطقة لما كان عليه المجتمع الأندلسي من تذوق أدبي عال وحب للشعر والجمال، وفي حياته العامة صورة واضحة كل الوضوح لما كان عليه عصره من تفكك سياسي واضطراب في الحكم وتنافس، بل وتناحر بين أمراء وحكام الأندلس بعد أن تفرقت كلمتهم وانتثر عقدهم، وأذنت شمس عزتهم بالمغيب.

أما مكانة ابن زيدون في الشعر والنثر فلا نغالي إذا قلنا أنه إن لم يكن شاعر الأندلس الأول فهو في الصف الأول من شعراء الأندلس، وهو منهم في مكان الصدارة ما في ذلك ريب.

ولم يكن نثر ابن زيدون يقل روعة عن نظمه، وكتابه الذي أرسله إلى عميد الجماعة يستعطفه ويصف فيه سوء حاله في سجنه قطعة أدبية رائعة بل وتحفة فنية من تحف الأدب العربي. وفيه يقول:

"يا مولاي وسيدي الذي ودادي له واعتمادي عليه واعتدادي به. وما أبقاه الله ماضي حد العزم. وأرى زند الأمل. ثابت عهد النعمة. إن سلبتني أعزك الله لباس نعمائك. وعطلتني من حلى إيناسك وأظمأتني إلى برود إسعافك. ونفضت بي كف حياطك. وغضضت عني طرف حمايتك. بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلي لك. وسمع الأصم ثنائي عليك. وأحس

الجماد باستحمادي إليك، فلا غرو قد يغص بالماء شاربه. ويقتل الدواء المستشفى به. ويؤتى الحذر من مأمنه، وتكون منية المتمني في أمنيته والحين قد يسبق جهد الحريص".

وتتحرك شاعريته وهو يكتب فيقول:

كل المصائب قد تمر على الفتى وتهـــون غـــير شماتـــة الحســـاد

ويقول بعد كلام طويل:

"ما هذا الذنب إلى لم يسعه عفوك؟ والجهل الذي لم يأت من ورائه حلمك؟ والتطاول الذي لم يستغرقه تطولك؟ والتحامل الذي لم يف به احتمالك؟ ولا أخلو من أن أكون بريئا فأين العدل؟ أو مسيئا فأين الفضل؟

"ألا يكن ذنب فعدلك واسع أو كان لي ذنب ففضلك أوسع"

"وقلني ما حسبي به وكفى . حنانيك قد بلغ السيل التربي"

ويشتد به الألم فيقول: "أعيذك ونفسي من أن أشيم خلبا. وأستمطر جهما وأكدم في غير مكدم. وأشكو شكوى الجريح إلى العقبان والرخم"

وله رسالة كتبها على لسان ولادة إلى ابن عيدوس، وهي من أقذع ما كتب في الهجاء إذ يخاطبه بقوله: "أيها المصاب بعقله، المورط بجهله، البين سقطه، الفاحش غلطه، العاثر في ذيل اغتراره، الأعمى في شمس نهاره، الساقط سقوط الذباب على الشراب".

إلى أن يقول له: "فوجودك عدم، والاغتباط بك ندم. والخيبة منك

ظفر، والجنة معك سقر. كيف رأيت لؤمك لكرمي كفاء؟ وضعتك لشرفي وفاء؟"

ثم أردف خطابه بقصيدة لاذعة نالت من ابن عيدوس ما ناله منه نثره وهو في ختامها يخاطبه فيقول:

وغـــرك مـــن عهـــد ولادة سـراب تـراءى وبـرق ومـض
هـي المـاء يأبى علـى قـابض ويمنـع زبدتـه مـن مخـض

وإلى هنا نستطيع أن نقول أننا رسمنا للحياة الأدبية في عصره غروب الخلافة وعصر ما بعدها صورة واضحة، وأننا وهدفنا الأول تحليل ونقد عصر الناصر قد ألممنا بالعصر الذي سبق عهده وبالعصر الذي جاء من بعده، وكان عصر الناصر درة هذا العقد وضحى هذا النهار المشرق، وقمة المجد والعظمة في تاريخ بني أمية في الأندلس، وأنه وابنه المستنصر بالله قد وضعا أساس نهضة علمية أدبية ظلت وارفة الظلال جنية الثمر من بعدهما أكثر من خمسة قرون، وكان لها أكبر الأثر في العرب والمستعربين من سكان إسبانيا أنفسهم ثم في البلاد المحيطة بشبه الجزيرة سواء ما كان منها في الجنوب في بلاد المغرب وشمال إفريقيا، وما كان منها في الشمال في جنوب فرنسا وألمانيا أو الشرق في صقلية وإيطاليا، وهذا هو موضوع بحثنا التالي، وهو خاتمة المطاف..

* * *

آثار حضارة الأندلس في إسبانيا، وفي أوربا

يقول "جوستاف لوبون" عن سياسة العرب ومعاملتهم لأهالي البلاد التي فتحوها: "لم ينبئنا التاريخ قط بفاتحين أرحم ولا أعدل من العرب في

فتوحاتهم"، وهذه الشهادة العادلة التي جاءت على لسان هذا العالم الأجنبي الكبير حقيقة تاريخية لا ينكرها منكر، حتى لو كان متعصبا لدينه أو جنسه، إنها حقيقة تظفر بإجماع المؤرخين قدامى ومحدثين، وتشهد بها شعوب لا أفراد وجماعات يختلف بعضها عن بعض في الجنس واللغة ودرجة الثقافة، فقد سكنت شرق الأرض وغربها وشمالها وجنوبها ودانت للحكم العربي الإسلامي وعاشت في ظله ونعمت بتسامحه المعدوم النظير. نعمت بالرحمة فوق العدل وبالمساواة التامة الكاملة والمعاملة الحسنة الطيبة فوق نشر الأمن والاستقرار.

لقد وضع أساس هذه السياسة الرشيدة صاحب الدعوة سيدنا محمد رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام، وكان عهده لليهود والنصارى دستور المسلمين الذي لا يحيدون عنه كلما تغلبوا على بقعة من بقاع الأرض.. وظل عهد النبي (ص) هذا مرعيا في كل عهد من عهود الحكم الإسلامي في دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة. وظل المسلمون في معاملة غير المسلمين الرحماء القائمين بالقسط المقيمين العدل المحققين للمساواة في إطار التكافل الاجتماعي يدعون لدين الله بالحكمة والموعظة الحسنة "فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر" من آمن وأسلم وجهه لله أصبح عضوا في المجتمع الإسلامي كله، تصان حقوقه كلها وعليه واجبات فرضها الإسلام يؤديها نحو هذا المجتمع.. وهذه هي الرابطة الروحية التي لا ولن تنفصم عراها والتي توحد مشاعر المسلمين مهما اختلفت أجناسهم وتباينت لغاتهم وتفاوت مدنياتهم فلا عنصرية ولا طبقية ولا استغلال ولا استعباد ولا تعصب ولا اضطهاد.

أما من اختار من سكان البلاد المفتوحة أن يظل على دينه فقد ضمن له الإسلام حريته كاملة غير منقوصة، لا يكره على ترك عقيدته ولا يمنع من إقامة شعائره وله متى أدى الجزية كل ما للموطن المسلم من حقوق ويؤمن على نفسه وآله وماله.

وكانت رحمة المسلمين بأهل الذمة رحمة واسعة فأعفوا من دفع الجزية على ضآلتها: الراهب، والشيخ المسن، والضعيف، والعاجز عن الكسب والمرأة والطفل. لهذا لا يعجب الباحث المنصف من السرعة الغريبة التي انتشر بها الإسلام في كل بلد فتحه المسلمون إذ يدخل الأهالي في دين الله أفواجا، وباعتناقهم هذه الحنيفية السمحاء ينسون الكثير من ماضيهم ويهجرون الكثير من عاداتهم وتقاليدهم ويأخذون عادات وتقاليد الإسلام ويعملون عليها فتصبح بعد فترة وجيزة جزءًا من ذات أنفسهم ويهجرون رويدا رويدا لغتهم الأصلية ويتعلمون العربية (لغة القرآن والإسلام) ويتكلمونها، ثم يطبعهم الطابع الإسلامي فتصبح لغتهم المفضلة يحذقونها ويلمون بفنونها الإلمام كله ويتقنون آدابها وعلومها؛ فنبغ من هؤلاء المستعربين فطاحل العلماء وكبار المحدثين والفقهاء وأعلام الأدباء والشعراء، ويزداد هذا الإنتاج العلمي والأدبي ويزدهر لدرجة يصعب معها على النقاد أن يفرقوا بين ما هو عربي أصلا وبين ما أنتجه المستعربون.

وكان للموالي في صدر الدولة العباسية أعظم الأثر في حياتها العلمية والأدبية بل وفي السياسة أيضا فكان منهم الحكام والقواد والكتاب والشعراء وأئمة الدين والفقهاء، وقد طوروا المجتمع العربي تطويرا بعيد

المدي فحاكى العرب الفرس في ملبسهم ومأكلهم بل ومبانيهم وتنسيق مدنهم وفي كل مظاهر الحياة الاجتماعية واصطبغت الدولة بالصبغة الفارسية في كل شيء تقريبا، وكانت علوم اليونان قد ترجمت إلى الفارسية في عهد كسرى أنو شروان فنقلها الموالي من الفرس مرة أخرى إلى العربية. وظهرت آثار هذا الامتزاج بين الفرس والعرب في الآداب والعلوم والفنون لأن الفرس يوم غزاهم العرب كانوا على قدر كبير من الحضارة والمدنية، أما في الأندلس فكان الأمر على نقيض ذلك تماما، ولهذا كانت آثار الحضارة الإسلامية في حياة المستعربين من أهالي الأندلس عظيمة جدا. وهذا ما قرره "لاجيير دومستيم" في خطابه الذي ألقاه في مؤتمر المستشرقين le – gienre de misteyme بمرسيليا عام ١٨٧٦ إذ يقول:

"إن القوط في هجومهم على فرنسا تحت قيادة "الأريك" في مبدأ القرن الخامس المسيحي لم يتركوا أثرا في البلاد التي افتتحوها، أما العرب فقد تركوا في البلاد التي احتلوها أثرا لا يزالون يذكرون به إلى الآن. لأنهم لم يقتصروا على إدارة شئون البلاد التي وضعوا أيديهم عليها بل قاموا بعمارتها في وقت كانت فيه دولتهم قائمة على أساس متين من الحضارة والمدنية".

وهذه شهادة أخرى بأن الفتح الإسلامي لم يكن مجرد بسط للنفوذ أو مد للسيطرة كما لم يكن حافزه التوسع والفتح ككل توسع سبقه أو جاء بعده، ولكنه كان رسالة أكثر منه فتحا، ونشرا لدعوة سامية أكثر منه ضما لبلاد جديدة. إنها رسالة ودعوة، رسالة مستمدة من عقيدة روحية بعيدة

عن المادية ودعوة خالصة لنشر دين الله وإنقاذ الإنسانية جمعاء مما تعانيه من ظلم الإنسان لأخيه الإنسان.

إنها فلسفة تستمد مبادئها من معاني الخير والرحمة والعدل وتهدف إلى تحقيق الحرية والإخاء والمساواة. وهي دعوة للتعاون الواعي والاشتراكية الحقة. ومخاطبة المشاعر والوجدان، وتشريعاتها إنسانية في جوهرها ومبناها وأغراضها وأهدافها.

وجاء على الإسلام حين من الدهر ازدهر فيه ازدهارا لم يسجله التاريخ لدين سبقه وقامت للمسلمين إمبراطورية لم تصل إليها الإمبراطورية الرومانية أبان عظمتها، وحكم المسلمون في معظم البلاد الإسلامية حكما مطلقا وخرجوا على نظام الحكم الذي سنه لهم الإسلام وأمر به وأعني به الحكم الديموقراطي فكان ذلك سببا في تدهور ملكهم وتفتت إمبراطوريتهم وغلبوا في النهاية على أمرهم، ولكن هذا التدهور السياسي لم يؤثر على عقيدتهم التي ظلت سليمة في جوهرها حتى في أحلك العصور الإسلامية وأسوأها. في كثير من البلاد التي فتحوها فقدوا سلطانه السياسي ولكن جوهر دينهم ظل قويا سليما كما ظلت عقيدته صافية ونقية. ودخل الإسلام الأندلس كما دخل شمال إفريقيا وغرب ووسط آسيا. ولم تكن للقوط في إسبانيا عند الفتح حضارة ذات شأن. وكانت أوربا في عصورها المظلمة وتعاني من الفوضى السياسية والتدهور الاجتماعي والاقتصادي، وهذا ما يعترف به كل المؤرخين. نظام إقطاعي طبقي يسوده الظلم الاجتماعي والتناحر السياسي والحروب والفتن ويخيم عليه الجهل المطبق

وتتحكم في العقول الخرافات ويسيطر رجال الدين والسادة المترفون والغالبية العظمى من الشعوب عبيد أرض أرقاء يباعون معها ويشترون، مهدرة إنسانيتهم ومهدرة أرواحهم وهم كالأنعام بل أحط درجة.

أما يهود إسبانيا فكانوا موضع الاضطهاد والتعذيب فينكل بهم ويصادرون في أموالهم وأرزاقهم ويسومهم النصارى الخسف ويطاردونهم مطاردة الذئاب للشاة حتى هاجر معظمهم إلى المغرب مستنجدين بالعرب الفاتحين مستظلين بظل سماحة المسلمين الغزاة وعدلهم ورحمتهم. فلما فتح العرب الأندلس عاد اليهود إلى وطنهم وأعاد المسلمون إليهم حرياتهم فمنهم من أسلم ومنهم من بقى على دينه، وكذلك فعل السكان الأصليون من النصارى وبدأ الطابع الإسلامي يطبع سكان الأندلس بطابعه وبدأ أهالي الأندلس يدخلون في دين الله ويتكلمون العربية وأحيانا يخلطون بينها وبين لغتهم الأصلية، وبدأت تنتشر الحضارة الإسلامية وكانت أيام الفتح وبعده مستمدة من حضارة الشرق وكانت المدنية في صدر الدولة العباسية في أوجها..

وانعكست صور هذه الحضارة على حياة سكان الأندلس عربا ومستعربين فظهرت في مجتمعهم الجديد الذي أضاء لأول مرة في ربوع أوربا حضارة عالية ومدنية عظيمة كان لها أثرها في نهضة أوربا التي بدأت بالفعل بعد انقضاء حكم العرب في هذه البلاد في منتصف القرن الخامس عشر وامتزاج الدم العربي في الأندلس بالدم الإسباني بمجرد الفتح فقد تزوج عبد العزيز بن موسى بن نصير بأرملة "لزريق"، وكانت زوجة المستنصر بالله

"صبح" أجنبية، وتزوج المنصور بنت "سانكو" ملك بافاريا ورزق منها ابنه "عبد الرحمن"..

وحذا الأمراء والعظماء والقواد حذو هؤلاء الملوك والحكام فاختلط الدم العربي والدم القوطي، وشاع هذا التصاهر حتى فشا بين عامة الشعب، ولهذا وجدت ظاهرة لم توجد في غير الأندلس ألا وهي نسبة الرجل إلى أمه كقولهم: "ابن القوطية" و"ابن الرومية" و"ابن الخبازة". وكان لهذا الامتزاج أثر كبير في تطوير حضارة الأندلس التي أصبحت هي الأخرى مزيجا من الحضارة العربية والإسبانية.

فإذا أضفنا إلى هذا عامل الهجرة المتواصلة إلى بلاد الأندلس من المغرب ومن صقلية ومن إيطاليا ومن الشرق ومصر؛ أدركنا مدى تأثر هذه الحضارة بكل هذه العناصر، ومدى تأثر كل من هذه العناصر بهذه الحضارة الإسلامية الشرقية. وكانت الظاهرة الغالبة على المجتمع الأندلسي هي عدم التعصب للدين، أما النزعة القبلية والنعرة الجنسية فكانت موجودة، تخف حدتها متى كانت الحكومة القائمة قوية متسلطة، وتظهر وتلعب دورها في الفرقة والانقسام متى ضعفت الحكومة المركزية وتسرب إليها الوهن..

وكان هذا المزيج العجيب سببا من أسباب الانحلال السياسي، وجرى الأمويون على سياسة تكوين جيش خاص من عنصر معين والاعتماد عليه، فمرة يختارون هذا الجيش من البربر ومرة أخرى من الصقالبة، ولكن هذه الأجناس بعد أن قويت شوكتها وعظم سلطانها كانت سببا من أسباب انتشار الفوضى والاضطراب فانتثر عقد الخلافة واستبد

كل أمير بحكم مقاطعته وقام النزاع بين الأمراء وحارب بعضهم بعضا واستعان بعضهم على بعض بملوك الإفرنج مرة وبحكام المغرب مرارا.

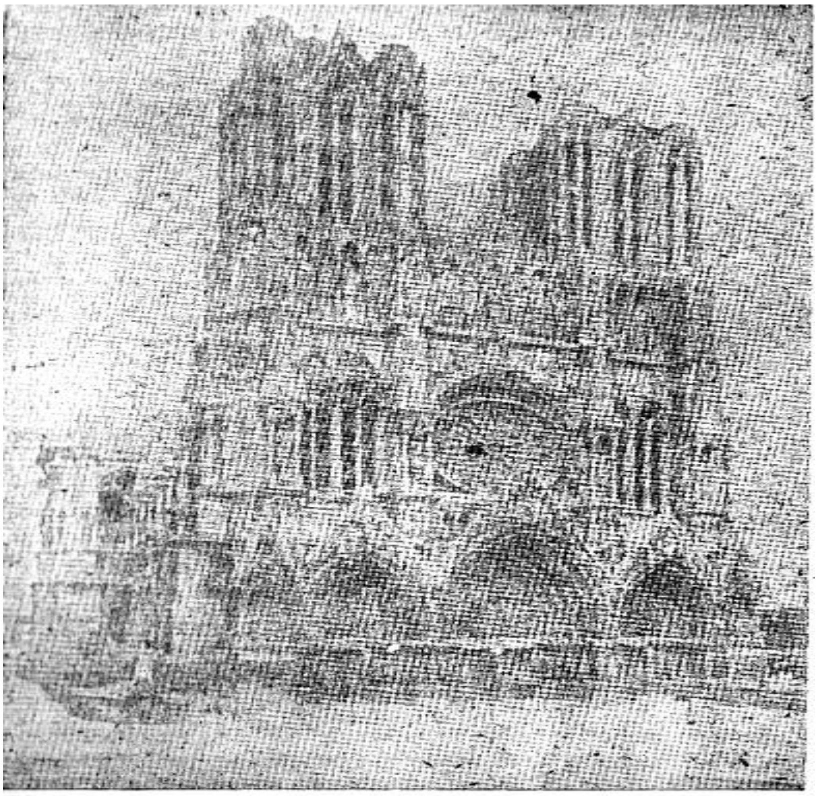
* * *

أثر الحضارة الإسلامية في النصارى

كان الدين السائد في شبه الجزيرة قبل الفتح هو النصرانية، وكانت القلة الموجودة من اليهود تعاني – كما قلنا – من المسيحيين أشد أنواع الاضطهاد. وكان النصارى أول من دخل في الإسلام واعتنقه، وبرزت هذه الظاهرة بروزا كبيرا في مصر بعد الفتح العربي وفي الأندلس؛ فبعد سقوط حصن "بابليون" عام ٦٤١ م. انضم أقباط مصر إلى العرب علنا وأسهموا معهم في إتمام الفتح، ولما خضعت مصر للحكم العربي بدأ المسيحيون يدخلون في الإسلام جماعات وأفرادا حتى قل عدد الأسر القبطية وأخذت اللغة الرومانية والقبطية في التلاشي وحلت محلها اللغة العربية التي أصبحت لغة البلاد الأصلية وحتى اضطر رجال الدين المسيحي إلى أداء شعائر صلاتهم باللغة العربية بجانب اللاتينية أو القبطية.

وأحسن العرب معاملة الطوائف المسيحية في مصر وعدلوا بين الملكانيين واليعقوبيين، وقد كتب أحد الأساقفة بعد الفتح العربي بنحو خمسة عشر عاما يقول: "عن العرب الذين أعطاهم الله السيادة علينا لا يضطهدون ديانتنا المسيحية بل يحمون معتقداتنا ويبجلون قساوستنا ويقدمون العطايا إلى كنائسنا وأديرتنا". هذا ما جاء على لسان الأسقف المصري، ما كتبه "البرو" القرطبي فيظهر بجلاء مدى تأثر النصارى في

الأندلس بالإسلام والحضارة الإسلامية وأخذهم بالطابع العربي الإسلامي في حياتهم الاجتماعية وأنهم أهملوا لغتهم الأصلية وتعلموا العربية وهذا ما سبب للقس "البرو" القرطبي حسرة عميقة عبر عنها في قوله (من كتاب تاريخ الفكر الأندلسي – ترجمة الدكتور حسن مؤنس).



كنيسة سان ريم بفرنسا

"إن إخواني في الدين يجدون لذة كبرى في قراءة شعر العرب وحكاياتهم ويقبلون على دراسة مذاهب أهل الدين والفلاسفة المسلمين، لا ليردوا عليها وينقضوها، وإنما لكي يكتسبوا من ذلك أسلوبا عربيا جميلا

صحيحا. وأين تجد الآن واحدا من رجال الدين يقرأ الشروح اللاتينية التي كتبت على الأناجيل المقدسة؟ ومن سوى رجال الدين يعكف على دراسة كتابات الحواريين وآثار الأنبياء والرسل؟ ويا للحسرة! إن الموجودين من شبان النصارى لا يعرفون اليوم إلا لغة العرب وآدابها ويؤمنون بها ويقبلون عليها في نهم، وهم ينفقون أموالا طائلة في جمع كتبها ويصرحون في كل مكان بأن هذه الآداب حقيقة بالإعجاب، فإذا حدثتهم عن الكتب النصرانية أجابوك في ازدراء بأنها غير جديرة بأن يصرفوا إليها انتباههم: يا للألم! لقد نسي النصارى حتى لغتهم" إلى أن قال: "فأما عن الكتابة في لغة العرب فإنك واجد فيهم عددا عظيما يجيدونها في أسلوب منمق بل هم ينظمون من الشعر العربي ما يفوق شعر العرب أنفسهم فنا وجمالا" وكان "ريكموندو" ويسميه العرب "ربيع بن زيد" الأسقف سفيرا للناصر لدى بلاط "أوتو" إمبراطور ألمانيا.

* * *

يهود الأندلس والحضارة الإسلامية

اضطهد يهود الأندلس اضطهادا كبيرا وصودروا في أرواحهم وأموالهم قبيل الفتح العربي لهذه البلاد، وهاجر عدد كبير منهم إلى المغرب العربي الذي كان ينعم بتسامح المسلمين وعدلهم ورحمتهم، وقد استنجد بالعرب عدد كبير من يهود الأندلس واستقبلوا هؤلاء الغزاة العادلين كما استقبل أقباط مصر جيوش "عمرو بن العاص" وما كاد يستقر للمسلمين الحكم في الأندلس حتى عاد الأمل إلى قلب هذه الطائفة المظلومة التي أمنت

على حياتها وحرياتها وأموالها ومعتقداتها. وبلغ التسامح العربي مداه نحو هذه الطائفة في العصر الذهبي: عصر الناصر والمستنصر، ولعل أبرز الأدلة على ذلك رعاية الخليفة الناصر للطبيب اليهودي المعروف "حسداي بن شيروط" – وقد جاء ذكره في أكثر من مناسبة – وتقريبه منه لدرجة أنه جعله واحدا من وزرائه المعدودين الذين يشاورهم في أموره المهمة.

وكان عهد ابن شيروط "أبو يوسف حسداى بن إسحق بن عزرا" بداية لنشر الثقافة العبرية في الأندلس؛ فقد بعثت الدراسة "التلمودية" في قرطبة كما وضعت للغة العبرية الكتب المتعددة الشاملة لنحو هذه اللغة ومقارنة نحوها بالنحو العربي، واشتغل عدد كبير من يهود الأندلس بالأدب العربي منظومة ومنثورة وحذقوا حذقا كاملا فنون اللغة وفقهها، وقد تأثروا بهذا الأدب العربي تأثرا كبيرا ظهر في آدابهم العبرية فظهر منهم أمثال "مناحم بن سروق الطرطوشي" الذي ألف في الأدب العبري نظما ونثرا مترسما خطوات الأدباء العرب ناهجا نهج شعرائهم.

وهكذا نسج أدباء اليهود أدبهم على منوال ما درسوه من الاتجاهات الشعرية العربية وألف كثيرون من هؤلاء الأدباء شعرا عبريا رائعا، وكان على رأس هؤلاء الفيلسوف الشاعر المعروف "بابنجبريول" (٤١١ / ٤٦٢ هـ) والذي قيل أنه كان سيد شعراء أهل ملته في عصره، وقد صب شعره في قوالب شعر عربية، وقد امتاز شعره هذا بصفاء القريحة وحسن تصوير المشاعر والأحاسيس، وقد درس الفلسفة بالعربية ووقف على اتجاهاتها وألف فيها بالعربية كتابه المسمى "بنبوع الحياة" وقد تأثر في كتاباته

الفلسفية بمبادئ ابن مسرة والأفلوطينية الحديثة، وقد ترجم كتابه هذا إلى اللاتينية وظل يدرس في أوربا حتى القرن السادس عشر، وينسب إليه أيضا نظمه لقصيدة بلغت نحو الأربعمائة بيت ضمنها كل ما كان معروفا من قواعد نحو اللغة العبرية التي كان يجيدها ويعتبرها لغته المقدسة، وقد أبان في كتاباته تحسره على ترك أهل ملته لغتهم المقدسة وتمسكهم باللغة العربية فكان شانه شأن "البرو" القرطبي. ومن اليهود الأندلسيين من كتب في الرياضيات والطب وفي علم الأخلاق وأشهرهم في الكتابة في العلم الأخير "يحيى بن يوسف بن فاقوذا" وله كتاب في إصلاح الأخلاق وفي الحكم، وقد تأثر في كتابه المسمى "الهداية" بكتابات الإمام الغزالي. وحاكى سليمان بن زقبيل الحريري في كتابه المقامات.

ومن الشعراء العبرانيين الذين قلدوا شعر الأندلس في تراكيبه وأغراضه شاعر غرناطة المسمى "موسى بن عزرا" الذي وصف في شعره مجالس اللهو والخمر وتباريح الهوى وقصص الحب، وقد نقلت بعض مؤلفاته من العربية إلى العبرية وتم تداوله. وحاول "إبراهام" بن داود الطليطلي (٥٠٣/ ٥٧٥ هـ) أن يوفق بين آراء أرسطو وبين تعاليم الدين اليهودي، وهذه هي نفس المحاولة التي حاول أن يقوم بها "الفارابي" من قبله ولم تجد فكرته هذه من طائفته تأييدا. ومن هذه النبذة الموجزة نستطيع أن نلمس مدى تأثر يهود إسبانيا بالحضارة الإسلامية والثقافة العربية، وسنرى كيف كانت هذه الطائفة عاملا من عوامل نقل هذه الحضارة وهذه الثقافة إلى أوربا.

* * *

أثر حضارة الأندلس في أوربا

يجدر بنا قبل أن نتتبع آثار الحضارة الأندلسية في أوربا أن نلقي على هذه القارة نظرة سريعة ابتداءً من سقوط روما على يد أدوكر القوطي في عام ٤٧٦ م وكان ذلك إيذانا باضمحلال حضارة الرومان. وحاول شارلمان (٧٦٨ – ٨١٤ هـ) كما حاول من قبله "جستنيان" (٥٢٧ – ٥٦٥ هـ) إحياء هذه الحضارة فنجحا لدرجة ما، ولكن عهد "جستنيان" لم يدم طويلا فقد دب الضعف في دولته، وهو لا يزال على قيد الحياة، ثم خلفه أباطرة ضعاف لم يصمدوا أمام غزوات الفرس، وظلت الحرب بين الفرس والروم سجالا حتى بعث النبي العربي صلى الله عليه وسلم في أوائل القرن السابع الميلادي فاكتسح المسلمون الدولتين وفتح العرب بلاد فارس بعد قيام الدولة الإسلامية في المدينة بعشرين عاما فقط، أما دولة الروم فقد سلمت عاصمتها "القسطنطينية" ولكنها خسرت الجزء الأكبر من ممتلكاتها في كل من آسيا وإفريقيا وانكمشت في حيز محدود في أوروبا..

وتجزأت دولة شارلمان بعد موته، ودخلت أوربا في أظلم عصورها وسادها عهد الإقطاع خمسة قرون كاملة (من القرن التاسع إلى القرن الثالث عشر) وهذه القرون الخمسة الحالكة الظلام في تاريخ أوربا هي عصور الإسلام الزاهرة في الأندلس، وقد جاء وقت على حضارة الإسلام بلغت فيها مداها في مشرق الأرض ومغربها في آسيا وإفريقيا وجنوب أوربا.. ويعتبر القرن الحادي عشر أزهى العصور الإسلامية وأعلاها تقدما ومدنية في هذه القرون الخمسة، بينما عاشت أوربا في أظلم عصورها

فسادها نظاما اجتماعيا مفككا، ونظاما اقتصاديا غاية في التخلف، كما خيم عليها الجهل وانتشرت بها الخرافات.

ولكن احتكاك الغرب المتأخر المتخلف، بالشرق المتقدم المستنير، جعل الغرب يفيق من سباته العميق ويرى بعينه النور فيمشي فيه، وكان لحضارة العرب والإسلام الفضل الأكبر في ظهور النهضة الاوربية التي بدأت شمسها تظهر على الأفق ابتداءً من القرن السادس عشر. في عهد الاقطاع حكمت طبقة الأشراف صاحبة الامتياز واختصت بالدفاع والقضاء، وكانت طبقة رقيق الأرض تعاني أشد أنواع الفاقة يبيعهم السيد مع الأرض كما يبيع الماشية والأنعام، وكانت هذه الطبقة الكادحة المهضومة الحق هي الغالبية العظمى للسكان، فقد كانت أوربا تعتمد الاعتماد الكلي على الزراعة، ثم نشأت مع مر الزمن ابتداءً من القرن الحادي عشر طبقة جديدة في المدن اشتغلت بالحرف الصغيرة والتجارة.

وباتساع المدن وازدياد نفوذ أهل المدينة بدأت تظهر للمدن الكبيرة شخصية معنوية، وأصبحت للمدينة حكومة تدير شئونها وترعى مصالحها وبدأ ظل الإقطاع يتقلص في المدن الكبيرة، واشتهرت مدن إيطاليا – وبخاصة جنوة والبندقية – بالنقل التجاري فازدادت ثروتها وازدادت بالتالي قوتها وأصبحت كل منهما أشبه بمملكة مستقلة لها جيشها وأسطولها، وأدى وجود العرب في شمال إفريقيا وجزيرة صقلية وجنوب إيطاليا إلى نشاط حركة التجارة في موانيء البحر الأبيض، وأدى هذا الاختلاط بين المسلمين والأوروبيين إلى نقل صناعات العرب إلى بعض مدن أوربا الكبرى..

وكانت صناعات العرب قد بلغت مبلغا كبيرا من التقدم، وبخاصة صناعات نسج الحرير والصوف والزجاج؛ مما أدى إلى ظهور مراكز صناعية في حوض "الرين" في ألمانيا مثل هامبورج ولوبك ونورنبورج، ومثل ليون ومرسيليا في حوض الرون بفرنسا. وبذلك بدأت أوربا تتحرر من حكم الأشراف الإقطاعيين إلى حكم المدينة، ومن الزراعة البدائية إلى وجود بعض الصناعات التي نقلت إليهم من الشرق الإسلامي، وبخاصة بعد اختلاط الأوروبيين بمدن هذا الشرق خلال فترة الحروب الصليبية التي أدت إلى احتكاك الغرب بالشرق خلال الفترة التي بدأت من عام ١٠٩٧م وانتهت بعام ١٢٩١م وهي السنة التي فقد فيها الصليبيون آخر مدينة لهم في الشرق، ألا وهي ميناء "عكا".

هذه هي حال أوربا في العصور الوسطى من الناحية الاجتماعية والاقتصادية، أما حالها من الناحية العلمية والثقافية فكانت متأخرة جدا إذ اندثرت أو كادت تندثر على يد القوط حضارتا الإغريق والرومان، ولم يبق من آثار هاتين الحضارتين إلا النذر اليسير، أما اللغة اللاتينية وهي لغة العلم، فقد تسرب إليها الضعف وتحولت إلى لغة ركيكة وانحصر استعمالها في داخل الكنائس وأصبح لا يفهمها إلا رجال الدين وقليل من الأشراف المعني بتثقيفهم. ولكن كان لانتشار هذه اللغة بين جميع رجال الدين في أوربا فضل كبير في المحافظة على التراث الحضاري القديم لليونان والرومان، وذلك على الرغم مما دخل عليها من تحريف. وتفرعت من اللاتينية عدة لغات انتشرت في دول البحر الأبيض بأوربا كما انتسبت إليها اللغات

الفرنسية والإيطالية والإسبانية والبرتغالية. أما في شمال أوربا ووسطها فسادت اللغات التي ترجع إلى أصل جرماني ومنها اللغة الأنجلوسكسونية التي انتشرت في الجزر البريطانية، والتي لم تدون بها العلوم إلا في أوائل القرن التاسع الميلادي.

وظلت علوم الأغريق المدونة بالإغريقية أو اللاتينية مكدسة ومحفوظة في الأديرة والكنائس ويحاول بعض رجال الدين أن يحفظوا ما يحلو لهم منها حفظا عن ظهر قلب دون أن يفقهوا منها شيئا ودون أن يعلموا الفكر في محتوياتها، بل كان منهم من يعتقد أن ما حوته كتب الإغريق لم يكن إلا إلحادا وكفرا، ولهذا لا تعجب لمثل هؤلاء إذا أحرقوا علنا من يقول بدوران الأرض حول الشمس خلافا لما هو مدون في كتب الإغريق من أن الشمس هي التي تدور حول الأرض. وقيل للذي لاحظ بقعا على وجه الشمس أن بعينيه مرضا وأن ما لاحظه مجرد وهم.

أما الفن في هذه الفترة المظلمة من تاريخ أوربا فلم يتعد حدود بعض الرسوم والنقوش التي كانت تحلى بها أغلفة الكتب المقدسة وبعض الحروف التي تأخذ شكل الأزهار وكذلك بعض الصور البشرية للقديسين والقديسات وكانت تحفر على الخشب أو تشكل في الصخور مثل الرخام والحجر الجيري. والفن الوحيد الذي ازدهر في هذه العصور هو فن العمارة، وذلك لرغبة الكنيسة في تشييد الكنائس والأديرة والمعابد المتعددة التي كانت تبنى في الغالب على النمط الروماني ذي العمد المستديرة والقباب الشاهقة والنوافذ الصغيرة المقوسة. أما دور البلديات

التي شيدت في معظم المدن بأوربا والتي كانت مقر مجالس المدن فكانت تبنى في الغالب على النمط القوطي.

وكان التعليم قاصرا على رجال الدين وحفنة قليلة من أبناء الأشراف المولعين بالثقافة، ويعتبر "شارلمان" أول من عني بهذا النوع من التعليم فقد استدعى العالم الإنجليزي "الكوين" alcuin من مدينة يورك بإنجلترا ليشرف على مدارس أبناء النبلاء التي أنشأها، وقد حذا شارلمان حذو صديقه "هارون الرشيد" فحشد في بلاطه عددا من علماء عصره ليفيد منهم، وحذا حذو شارلمان بعض الحكام في أوربا، ولكن جهودهم كانت ضئيلة ومحددة، وقد نجحت بعض جهود "فردريك بربروس" في بعض مدن ألمانيا مثل كولونيا وأجزبرج.

ولعل أظهر الشخصيات في أوربا ممن عمل على نشر المعرفة هو "فردريك الثاني" الذي أصبح ملكا على صقلية وجنوب إيطاليا، إذ كان هو نفسه من الرواد الأول المولعين بالعلم والأدب، وقد نظم الشعر باللغة العامية، وقيل أنه كان يعرف ست لغات أجنبية أحدها اللغة العربية، وقد أفاد إفادة كبرى من علوم العرب وآدابهم، وإليه يرجع الفضل في إنشاء جامعة "نابولي" وهي من أولى جامعات أوربا، كما أنشأ مدرسة للطب درس فيها ما كتبه الأطباء العرب في هذا العلم وما نقلوه عن اليونان. ولهذا لا نعجب إذا رمى البابا "أنسنت الثالث" مثل هذا الرائد المستنير بالكفر والإلحاد.

وأنشئت جامعة باريس في أواخر القرن الثاني عشر، وكانت العلوم التي تدرس في هذه الجامعة لا تعدو دراسة المنطق والفلسفة مع الدين، ثم

أضيفت إلى هذه العلوم دراسة القانون الروماني، وقد عنيت بدراسته جامعة بولونيا في شمال إيطاليا ثم أنشئت جامعة أكسفورد في عهد هنري الثاني، وتلتها جامعة كمبردج. وكانت الدراسة في هذه الجامعات تتسم بالبساطة التامة ومأخوذة عن طريقة الدراسات عند العرب إذ يجلس الأستاذ وبيده الكتاب موضوع الدراسة ويبدأ بشرحه لتلاميذه الجالسين حوله وبيدهم مذكراتهم يجلسون على الأرض ويدونون شرح الأستاذ في مذكراتهم الخاصة، وكانت كتب أرسطوطاليس هي محور المناهج. ولكن أوربا لم تعرف من مؤلفات هذا الفيلسوف العظيم حتى القرن الثالث عشر الميلادي سوى "المنطق".. أما مؤلفاته الأخرى في الفلسفة والأخلاق والسياسة والقانون والطبيعة وما وراء الطبيعة فالفضل في ترجمتها وشرحها والتعليق عليها يرجع بلا شك إلى مجهود العرب والمسلمين من العرب وغير العرب.

ومن الحقائق التاريخية التي لا ينكرها مؤرخو الغرب هي أن العرب قد استخدموا القياس كما استخدمه أرسطو، ولكنهم لم يعتمدوا عليه كل الاعتماد في بحوثهم العلمية التي استخدموا فيها طريقة الملاحظة والاستقراء؛ فللعرب الفضل الأول في وضع أسس البحث العلمي على قواعد سليمة قوامها التجربة والملاحظة الدقيقة والاستقراء الكامل. ففي الوقت الذي كانت تعتبر فيه الكنيسة المرض قدرا يجب أن يقابل بالرضا والتسليم – ولهذا تحرم الاشتغال بالطب – كان علماء الإسلام يسهبون في وصف أعراض الامراض المختلفة وعلاج كل منها علاجا خاصا.

ووضع المسلمون أسس البحث العلمي وأظهروا فضل الاستقراء على القياس قبل أن ينادي بذلك فرنسيس باكون (١٥٦١ – ١٦٢٦ م) بخمسة قرون، فقد استخدم الاستقراء في البحث: الحسن بن الهيثم أول علماء الطبيعة في الإسلام، والذي كشف به قوانين الطبيعة، وقد أوضح منهجه العلمي هذا في كتابه "المناظر" إذ يقول: "نبتدئ في البحث باستقراء الموجودات، ثم نميز خواص الجزيئات" فكان يبدأ بالملاحظة مستعينا بالتجربة وكان يسميها "الاختبار"، وبهذه الطريقة كشف قوانين انتشار الضوء وانعكاساته، وقد استخدام في ذلك أدق الآلات، ومات الحسن بن الهيثم في القاهرة عام ١٠٣٩ في حين أن "بيكون" مات في عام ١٦٢٦.

ولنعد الآن إلى حضارة الأندلس وكيف نقلت إلى ربوع أوربا وكيف ساهمت هذه الحضارة في إخراج أوربا، وكيف ساهمت هذه الحضارة في إخراج أوربا من الظلمات إلى النور، ويطول بنا المقام لو أننا تتبعنا البحوث القيمة التي عني بها المستشرقون وبخاصة الإسبان منهم للتدليل على صحة هذه النظرية، فقد وفقوا في عصرنا الحالي إلى العثور على وثائق ثمينة ومخطوطات ذات قيمة وكتب يخطئها الحصر ألفها العرب والمستعربون في إسبانيا وظلت فترة طويلة غير مدروسة، وإنما نكتفي بشهادة واحدة سجلها أب يسوعي في القرن الثامن عشر مستندا إلى منطق الأحداث أكثر من استناده إلى الكشوف العلمية والمخطوطات، ثم إلى تأييد ما قال به عصرنا الحالي علم من أعلام مدرسة المستشرقين الإسبان، وهو "أنجل

جونزالز بالنثيا Palencia مؤلف تاريخ الفكر الأندلسي الذي نقله عن الإسبانية الدكتور حسين مؤنس.

يقول الأب اليسوعي "خوان أثوريس" الذي عاش في القرن الثامن عشر في كتابه الذي نشره بالإيطالية ما بين عام ١٧٨٢ و١٧٩٨م وسماه "أصول الأدب وتطوراته في عصره" والذي ترجم إلى الإسبانية "أن الفضل في قيام الدراسات الطبية في أوربا يرجع إلى ما كتبه العرب. العرب الذين كانوا يبعثون بالسفراء لاستجلاب الكتب القيمة ما بين إغريقية ولاتينية، ويقيمون المراصد لدراسة الفلك ويقومون بالرحلات ليستزيدوا من العلم بالتاريخ الطبيعي، وينشئون المدارس لتدرس فيها العلوم بشتى صنوفها. وأن بعث الحركة الأسكولاستية the scholastic agee (وتطلق عادة على الفترة ما بين القرن العاشر الميلادي والرابع عشر) إنما جاء عن طريق الكتب التي نقلت من العربية إلى اللاتينية، وأن التأليف العلمي في أوربا في الرياضيات والعلوم الطبيعية مرجعه للعرب.. وذكر تأييدا لرأيه عددا كبيرا جدا من مؤلفي وعلماء أوربا ممن كانوا بالفعل الرواد الأول في بعث هذه الحركة. حركة انتقال علوم العرب إلى أوربا.. فقرر أن "روجر بيكون" استقى مادة مؤلفة عن العدسات من الكتاب السابع من "بصريات" الحسن بن الهيثم، وأن ليوناردو البينري أخذ علم الجبر عن العرب ونقل عنهم الأرقام وأدخلها إلى أوربا وعلمها لأهلها. وأن "جربرتوس" تعلم علم الحساب العربي في إسبانيا، وكذلك تلقى كل علومه في إسبانيا "أورنالدو دي فيلانوفا" وهو الذي نشر المعارف القيمة في الطب والكيمياء في أوربا.

وأن رايموندو بوليو الأديب الأديب مدين لأدب إسبانيا بالشيء الكثير.

وقد استطرد فقال أن "بيبو دانييل هو يه" (١٦٣٠ -١٧٢١ م) ذهب إلى أن "ديكارت" أخذ عن أعلام الجدل الإسلاميين مبدأه الرئيسي الذي يقول فيه "أن من يستطيع أن يفكر فهو موجود"، وأن "يوحنا كبكر" استوحى اكتشافه للأفلاك الدائرية للكواكب من كتابات البطروجي، وأن بعض آراء "توماس الأكويني" مستقاة من كتب العرب. ولسنا في صدد إيراد ما ذكره هذا الأب اليسوعي المنصف، ولكننا أوردنا نبذا من استدلالاته، وقد ختم بحثه النزيه بقوله:

"إذا لم يكن للعرب من الفضل إلا الاحتفاظ بذخائر العلوم التي أهملتها الشعوب الأوربية ونقلها وإيداعها أيدي الناس عن طيب خاطر فهم حقيقون بالشكر والعرفان"

أما ذكره عن إسبانيا فشيء كثير نقتطف منه ما يأتي: "وكان الشعر الأسباني تقليدا للشعر العربي، وأن صور هذا الشعر وقوالبه قد انتقلت إلى بروفنسيا عن طريق الصلات المتبادلة بين الإسبان والفرنسيين (نصارى ومسلمين) وأن الشعر البروفنسي ينسب إلى العرب لا إلى اليونان أو اللاتين لأن أهالي بروفنسيا لم يكونوا على علم بهذين الأدبين، وكان شعر العرب أقرب مورد لهم. ويؤكد بعد ذلك أن قواعد التقفية التي اتبعها الشعر الشعبي إسبانيا كان أم بروفنسيا إنما أخذت عن الشعر العربي. وأن الشعر البروفنسي كان له أثر بدوره في الشعر الإيطالي. كما أكد أن موسيقى "التروبادور" وآراء الفونس العالم في هذا الفن عربية الأصل،

وكذلك اللون القصصي المعروف بالفابليو – أي الخرافة –كل ذلك يرجع إلى أصل عربي إسباني، وأخيرا يعقب الأستاذ المستشرق الحديث على ما كتبه الابن "أندريس" في القرن الثامن عشر فيقول وقوله حجة: "وقد بقيت هذه الإشارات المبهمة التي كتبها ذلك الأب اليسوعي المنفي (وكان قد فصل من جماعة اليسوعيين وطرد من إسبانيا) دون إثبات مؤكد في عصره، لأن شيئا من آثار الأندلسيين لم يكن قد نشر إذ ذاك. أما اليوم وبعد نيف وثمانين ومائة عام من نشر كتابه (ويقصد كتاب الأب أندريس) فإننا نستطيع أن نذكر عن تراث الأندلسيين أكثر مما ذهب إليه".

وفي ختام هذا البحث أرجو أن اكون قد وفقت في محاولتي، وأن أكون قد أسهمت بهذا المجهود الضئيل في إظهار فضل العرب خاصة والمسلمين عامة، على العالم الأوربي الذي يتيه اليوم بما وصل إليه من حضارة ومدنية نحن أصحاب الفضل الأكبر في نشرها. والله أسأل أن يحمي العروبة والإسلام ويعيد للعرب والمسلمين سابق مجدهم وعزهم، وهو على كل شيء قدير.

على محمد راضي

.." تم بعون الله " في ١٠ ربيع الأول سنة ١٣٨٢ /١٠ أغسطس سنة ١٩٦٢..

الفهرس

الإهداء...٥

الأندلس والناصر ٦

العصر الذهبي.....................................٧٥

عصر ملوك الطوائف والموحدين.................١٣٣